حارة الصوفى

شظايا سيرة ذاتية

محمد السمادونى

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : حارة الصوفي
المؤلف : محمد السمادوني
تصنيف الكتاب : قصص قصيرة
تصميم الغلاف : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٦٩١٢ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 575 - 6

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

١

صحــوت من طفولتى على اكتشــاف زيف الوعود بأن قميصى ســوف ينضبــط مع الوقت؛ لأن جســمى ينمو وأن حذائى الجديد الضيق ســوف يتسع مع المشى، لا القميص (اتظبط) ولا (الجزمة) وسعت.

الآن اشترى لأطفإلى أحذية وملابس بمقاسات منضبطة.!

٢

عندمــا يتحــدث البحر، وتبــدأ البدايــات. المحــراث يقلب تربة الذكريــات. انشــطارا أو اندماجــا. القنبلة النووية تقــترب من لحظتها الحاسمــة. كوريا الشــمالية. لا أدرى لمــاذا يقاطعها الحمــل الوديع فى حظيرة راعى البقر. البداية الحقيقية للعالم عندما زارنى أبى فى مدرستى الابتدائية فى أول يوم دراسى من أول سنة دراسية فى التعليم الالزامى. كنــت فخور بالرجل أمام المعلمة البيضاء الجميلة. ذات الشــعر القصير. والتنــورة القصيرة. والبلوزة الكت البيضــاء. كانت هذه هى معلمتى فى الســنة الأولى الابتدائية. وأنه حدث لو تعلمون عظيم. أن تقوم بالتدريس فى مدرســة بين الحقول آنسة تأتى من مدينة بعيدة كل يوم وتسير على أقدامها عدة كيلومترات. قيام. جلوس. أبى بطلعته المهيبة ضيف شرف الأبلة الحســناء. أبى كان يوقرها. يوصيها عليّ. أنا كنت أغازلها. لم أر مثلها فى قريتى. تشــجعت بزيارة والدى الذى أثنت عليه الأبلة بعد أن انصرف. من وقتها أشعر أنى رئيس الفصل. المدرسة. العالم. قلت للبحر. هذه قصــة أول حب. فى حياتى. كانت جميلــة. قنبلة نووية. ظلت فى الصنــدوق أكثر من نصف قرن. تحولت إلى محطة للأغراض الســلمية فى

الضبعة. زمجر البحر. ضربنى بموجاته التى صفعتنى بلا رحمة. القصة لم تعجبه.

٣

الحب فى البــلاد البعيدة. الناس موتى. وأهل الحب أحياء. نفســى أشــوفك يانبى. يا أبو بلاد بعيدة. موســى نبى.عيســى نبى.محمد نبى. ومــن كان له نبى يصلى عليــه. فى طفولتى. كنت أقــف فى دائرة حول رجل يلعب بالنار. يشعلها من فمه. ويطفئها فى فمه. ويتحدث عن أكل العيش، والصبر والمر. والتسامح الدينى، وكانت ابنته تساعده. ثم تدور علــى الوقوف فاتحة منديل تجمع ماتجود به القلوب المشــفقة. ولايزال الاب يجتهد فى مهمته. استدرار العطف. تحنين القلوب. وابنته تدور. يدها ممدودة. وفى عينها انكسار.

٤

فــى الصباح. صباح مثــل كل الصباحات فى ذلك الوقــت. فى القرية المقسمة إلى حارات بأسماء العائلات. الندا، رائحة الحليب ذهابا وإيابا. لنساء ورجال ومواشــى. خرجتُ إلى الحارة بعد أن عرفت لا مدرسة فى ذلك اليوم. ويكفى أن أعرف أن لا مدرســة دون أن انتظر لمعرفة السبب، وأقفــز فرحا وأجرى خارج المنزل أبحث عــن الرفاق. وبمجرد خروجى وجدت خشــبا جديدا ونجارا يصنع نعشا. وعمال الفراشة أتوا من البندر ينصبون الصوان. وفى الليل سمعت الشيخ مصطفى إسماعيل. لقد مات أحد كبــار العائلة، وعندما ذهب الجميع يشــيعونه كنت مع أطفال يتقافزون على كراسى الصوان الفاخرة المذهبة، وسمعت أن هناك ثمة فكرة يتداولها الرفاق عن لعبة عريس وعروسة.

٥

مـدن الأحلام. كانت صغيرة هادئة، وكنت أنا أيضا صغيرا. تداعبنى وأداعبها. إذا رغبت فى الترفيه عن نفسـى أمشـى ساعة العصارى على الكوبرى العتيق. كنت اسـأل نفسـى كيف يسير القطار المتجه من دسوق إلى دمنهور على هـذا الكوبرى القديم عدة مرات فى اليوم والليلة ؟ دون أن يتحطـم. كنت أفخر بأنى فى مدينة على النيل بها كوبرى ومسـجد الدسـوقى، ومبنى مجلس المدينة وبجواره فيلا كانت مخصصة لسـكنى شـخص قيل لى وقتها أنه حاكم المدينة. كان شـتاؤها قاسيا. وفى الصيف يحلو السـهر على شـاطئ النيل وركوب العجل من عند بديع العجلاتى. وشراء اللب والحلوى من الصردى. محطة القطار بدسوق تغرينى بالتأمل. طراز انجليزى عتيق. هنا تابعت معركة العبور. ودوّت صافرات الإنذار. واظلمت المدينة. وقفت أنا وأبى فى شـرفة المنـزل نتابع الموقف وحركة طيران فى السماء. كان قلبى مع جنودنا على جبهة القتال. ودعوت بقلب طفـل أن ينصرنا الله. وفى اليوم التإلى تطوعت فى الدفاع المدنى. وتجمعنا فى استاد المدينة للتدريب على حمل السلاح، وعندما نجحت فى الثانوية العامـة ركبت القطار إلى مدينة أخرى. قدمـت أوراقى لجامعة القاهرة. أخذتنى القاهرة أخذ عزيز مقتدر.

٦

إفطار فاخر. سـندوتش فول وسـندوتش طعمية من التابعى. تذكرت صديقى المستشـار فزاع فى الاستراحة بشـارع محمد فريد فى المساء كان ينادى:

– ياولد ياربيع هات لى عشاء فاخر، واحد فول وواحد طعمية من آخر ساعة وخسارية فاخرة من التوفيقية اغسلها كويس. وبعد العشاء كان يسهر لقراءة القضايا. كان الزملاء يربطون بين تأخره فى الزواج وقضاءه وقت أطول من اللازم فى الحمام، وذات يوم كتب حكما بالإعدام، ثم دعانى للذهاب إلى دار السينما سويا، وفى الطريق نصحنى بالزواج المبكر، ومن مأثوراته التى تتناقلها الألسنة فى الاستراحة: العضو يفنى بعدم الاستعمال.! وعندما اعترض عزت بك على فجاجة اللفظ قال بحسم: حقيقة بيولوجية ياسيد..!

٧

كانت البلكونة بها عشة الفراخ. تمد البيت بلحم طير مما نشتهى طول العام، وكنت أرى خزينا سنويا من البصل والثوم معلقا على جدارها. وعقد البامية الجافة. والملوخية. كنت أرى أن أمى تقوم بمجهود هائل. من تعليم وتربية الأبناء والدواجن وتخزين احتياجات غذائية سنوية. كل سنة وانت طيبة ياأمى. أراكى تعيشين فى قلبى كل هذه السنوات. الموت لم يستطع أن يمحو صورتك من دنياى.

٨

أمام المقهى. عدت صبية. حلوة. قال الملتحى وهو ينظر إليها بسم الله ماشاء الله. قال الرجل الآخر بعد أن أنزل مبسم الشيشة من فمه باشا باشا. قال الجرسون بصوت عإلى ونغمة خاصة. سهران لوحدى. غمزت الصبية بعينها وهى تبتسم. تعجبت!!

٩

مررت بعرس فى حى شـعبى. كان المطرب يغنى أغنية مطلعها اللى يـاكل من حرام. ويناوله شـخص كوبا به (حاجة صفـرا). الموائد عليها زجاجات الويسكى والبيرة. وتدور الجوزة بتعميرة معتبرة. الكل يرقص. الكل يغنى. العيون على جسـد الراقصة العارى. ولايزال المطرب يغنى. والكل يرقص على أنغام. اللى ياكل من حرام. اللى ياكل من حرام..!

١٠

نـوم الظالم عبادة. كلما تقلبت فى فراشـى. وجاء الاختيار بين النوم واليقظة.قال النوم: نم فنـوم الظالم عبادة. ما أراه فى احلامى أفضل مما أراه فى يقظتى. ولسـت ظالما. جـاء صوت ثالث قال: هل أنت أفضل ممن قال لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين؟.

١١

جاء الطوفان. اختفت القرى. الدار والدوار. زريبة المواشـى. طواجن الحليب. الجاموسـة التى تدخل البيت برجلها اليمين. وابور الطحين. الحطب. القش. أكياس القطن. أبو العطا. عندما ذهبت إلى قريتى وجدتها تحولـت إلى مدينة صغيرة. يسـكنون فى شـقق. يعتمدون على السـباك والكهربائـى. ويقفون طابور أمام المخبز ينتظرون شـراء الخبز المدعوم. يشـترون الفـول والطعمية كل صباح. الدش. الموبايـل. لم أكن أدرك أنى سأكون من ذلك الجيل الذى يشهد هذا التحول.

١٢

كان الليل بطعم الخوف. أبواب غليظة تغلق. تحسس السلاح. ثمة حكايات هامسة عن جريمة قتل ويخفت الصوت جدا عند ذكر اسم القاتل ويكاد يختفى. سرقة المواشى. لم تكن هناك كهرباء. كانت نعمات تحلب الجاموسة المغرب. وتغلق الأبواب جيدا.. ويراجع على الأقفال والترابيس عبد الستار بنفسه. وهو يسعل سعالا متواصلاً. ويلعن المعسل ومن يشربون المعسل ومن يبيعون المعسل. ثم يأمر ست الدار أن تولع قولحتين وتغير مية الجوزة..! كنت أرتعد من الخوف.

١٣

الدجال...لم يدرك أكثر المعاصرين فرصة للدجل وتركوها.. الدجل باسم الدين.. الدجل باسم السياسة.. الدجل باسم الوطنية.. الدجل باسم القانون.. عنوان كبير لحياتنا حاليا الدجالون.. ويتجلى الدجل فى أبهى صوره عند استخدام الدين للنصب لاستلاب الأموال والأعراض.. على المقهى شاهدت دموع الحاج سيد.. رجل ادّعى أنه يشفى بالقران.. انخدع فيه الحاج سيد وادخله بيته لعلاج ابنته المريضة.. راودها عن نفسها فأبت.. أطلق البخور بعد أن وضع فيه مادة مخدرة.. وتمتم بالآيات وبذكر الله.. استرخت..فاغتصبها..

الحاج سيد جاء باكيا.. حائرا بين فضيحة الإبلاغ.. وبين عار السكوت.. أخذ يلطم وجهه ويصيح فى الشارع كالمجنون ويقول أنا اللى جبته لنفسى أنا اللى جبته لنفسى..!

١٤

سب الدين حرام شرعا.

كتبها الرجل فى يافطة كبيرة وعلقها بعرض الشارع.. وأنا راجع من المحكمة الاقتصادية الفخمة بجوار كارفور المعادى شعرت بحاجتى إلى جرعة من عبق الحياة الشعبية المصرية. ركنت السيارة فى أول شارع محمد على. ترجلت حتى السيوفية. جلست على مقهى بلدى. أمامى كوب الشاى. ورجل تلتف حوله مجموعة من النسوة وهو يقطع اللفت بنصل حام. يبيع الورق لهذه ويبيع الثمرة لتلك. الإقبال شديد على بضاعته. النساء فى المناطق الفقيرة يصنعن المحشى من ورق اللفت. عينى وقعت عينى على اليافطة. سب الدين حرام شرعا. وأخذتنى من حضن الأجواء الشعبية. إلى عالم العبث. بكل شئ. بالفتوى. وبالدين. عبقرية كاتب اليافطة. ورافعها. وحارسها. وقارئها. غادرت المكان. بسرعة.

١٥

فى حفلة تكريم جارى المهندس نادى بمناسبة احالته للمعاش، قدمت له فتاة من كتيبة العاملين صندوقا مغلقا، وعندما فتحه بعد انتهاء الحفل وانصراف الجميع وجد به كلب عمره شهر واحد.. وعندما توجهت إلى شقته وطرقت الباب لتقديم واجب العزاء فى والدته فتح لى وبجواره كلب ضخم، ولاحظت وجود عدد من المعزين فى الصالة من بينهم صاحبة الهدية.. والتى ذكرته بمرور سنوات خمس هى عمر الكلب الآن.. قال عن والدته انها كانت تحب ركس جدا وكانت تسأل ماهو العمر الذى تموت فيه الكلاب عادة، وطلبت من الله أن تموت قبل

أن يمـوت ركـس.. وكان ركس يصدر أصواتا غريبة سـاعة احتضارها.. وانتابته حالة من الحزن الشديد عند خروج الجثة من المنزل..

نادى وركس يعيشـان سـويا فـى البيت.. يواسـى أحدهما الآخر.. ولايعرفان من سيودع من؟ ومتى ؟..!

١٦

تنهدت السيدة العجوز وقالت تعالى لى ياآبا. وكان الرجل قد مات منذ سـنوات. ثم اسـتدركت والا خليك عندك لا تاخد الفدانين اللى ورثتهم عنك.!

وجـال فى فكرى فرض غريب. هل لو عاد آدم أبو البشـرية سـوف يسـترد ثروات جميع الآفراد فى العالم. وماذا لو مات هل ستقسم أملاكه على الجميع؟!

١٧

وقفتْ فى محل جروبى تطلب ١٥٠٠ قطعة جاتوه على أن يتم تغليفهم خلال ساعة وسألت عن الثمن. قال البائع الأنيق ٣٠ جنيه.

كان هذا مشـهد من فيلم العتبة الخضراء تذكرته وأنا أشـترى دستة جاتوه أمس من محل العبد وطلب ٩٦ جنيه..!

١٨

يقف الرجل العجوز فى شـارع سـعد بدسـوق ومعه كاميرا عملاقة محمولـة على ثلاثـة أرجل ويلتقط صورة لشـخص يجلس على كرسـى

متهالك أمامه غالباً جاء هذا الشخص من قرية قريبة من المدينة؛ لكى يستخرج بطاقة شخصية ورقية وكانت الصورة المائية التى يلتقطها المصوراتى ويقوم بتحميضها وقصها وتجفيفها من الماء قبل أن يسلمها للشخص المبهور بهذه التكنولوجيا الموجودة فقط فى البندر، هى معجزة فى نظرى تدفعنى للوقوف أمام المصوراتى للفرجة أوقاتا طويلة، وكنت فى طفولتى أعتقد أن هذا المصوراتى عبقرى بكل المقاييس، وكنت أحزن لثيابه الرثة ورقة حاله وخاصة بعد الظهر عندما يغلق مكتب السجل المدنى أبوابه ويقوم هو بحمل الكاميرا والكرسى على كتفه ويرحل.

١٩

برنس قادم، انسيال ذهب فى يده. سلسلة جنزير ذهب فى رقبته. خاتم ذهب به فص الماظ فى أصبعه.

فى الصاغة قام صاحب المحل يستقبل الزبون الثرى بنفسه ويعرض عليه بضاعته من أفخر المشغولات الذهبية، أخرج الزبون البرنس علبه سجائر مارلبورو بها سيجارة واحدة. أشعل السيجارة، ووضع فى العلبة الفارغة قطعة ذهبية خلسة. قذف بالعلبة خارج المحل بعد ان كرمشها. أعرب لصاحب المحل أنه لم يعجبه شئ وهم بالانصراف. اكتشف الصائغ نقص بضاعته فاستوقف الزبون وفتشه ولم يعثر على شئ. فصرفه. بعد أن خرج انحنى على الارض والتقط علبة السجائر المكرمشة.

كانت الكاميرات قد رصدت رجل فى سوبر ماركت يستولى على قطعة شيكولاتة ليقدمها لابنه، وتم القبض عليه وإحالته إلى محاكمة عاجلة بتهمة السرقة.

وهنا تنهد الصائغ وقال لى لم يكن لدينا كاميرات فى هذا الوقت وكان الجو حارا ولايوجد تكييف.!

٢٠

أذكر فى طفولتى بمدينة دسوق شخص اسمه على نويجى يقولون عنه أنه شيوعى، كان يحصل على أعلى الأصوات فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى، وكان طبيبا عيادته مفتوحة للناس ولم أسمع فى هذا الزمن عن شخصية تتقدم نتائج الانتخابات مستندة إلى رصيدها فى الانتماء إلى جماعة دينية، أو مذهب معين...!

٢١

كنت أرقبه. ظل يقاوم الواقع المعاش بالنوم والأحلام، وكلما وجد معه جنيهات زائدة عن ثمن الطعام والدواء سارع واشترى بها حشيش، ومن معتقداته الأزلية أن البيرة حرام والحشيش حلال، وبعد وفاة أمه انقطعت علاقته بنساء العالمين، ومات وهو نائم يحلم بحياة سعيدة وبواقع غير الذى يراه فى يقظته.!

٢٢

صديقى الذى يرضع مكرونة. قلت له ألم يأن وقت فطامك بعد. ضحك من قلبه. يعرف محلات المكرونة فى القاهرة. فى ثلاجة البيت تسبيكة المكرونة دائما موجودة. يأكلها فى الإفطار أو الغداء أو فى العشاء. يرجع فى المساء متأخرا ويجد زوجته نائمة فيدخل المطبخ ويعد وجبته، وفى يوم زاره صديق من تونس، وتعرف على حكايته مع المكرونة، ووقع فى عشق المكرونة من محل دعبس، وعندما قال جمال لصديقه التونسى ان

صديقهما المشترك صبرى سيزور تونس فى مهمة عمل. طلب التونسى مكرونة تصله ساخنة من محل دعبس فى القاهرة. وقد كان.

وفى جلسة لاينقصها الصراحة عرفت أن صديقى مدمن المكرونة يعانى بعض المرض فى زوره منذ الطفولة يمنعه من أكل الخبز ويستعيض عنه بالمكرونة.

٢٣

كنت فى ميدان العباسية متجهاً لجامعة عين شمس.. قال صديقى: لا تشغل بالك بالقانون النووى ولا محطة الضبعة.. هناك ولد مجنون فى كوريا الشمالية سوف يضغط على بعض الأزرار فينتهى العالم.. ووجدت عباس حلمى يطل علينا ويقول: أنشأت حى العباسية، وأول خط سكة حديد وأهديت حبيبتى قصرا فيه ألف نافذة وقتلونى بعد خمس سنوات من الحكم.. ووقع منى كتاب.. وانحنت شابة جميلة تلتقطه.. وظهرت فرقة الموسيقات العسكرية.. وانتشرت الورود.. وقصارى الزرع.. وتوقف المرور.. ومرق موكب السيد الوزير.. ورجعت الأمور إلى مجاريها.. نتحدث عن الأمان النووى.. وترقص الفتاة.. وتتبدل ألوان إشارة المرور من الأحمر إلى الأخضر.. والسيارات لاتتحرك..!

٢٤

لقد تكلمت البشرية مع بعضها البعض منذ اختراع الهاتف المحمول أضعاف الكلام الذى تكلمته فيما بينها منذ بدء الخليقة.

عصر الكلام.

والجنرالات..!

٢٥

ثمة جنازة كانت تمر فى الصباح الباكر. الثامنة. جندى المرور. عامل النظافة يجر مكنسته الضخمة. ندى. امرأة جميلة على الرصيف ترقص. شاب اشترك معها.. قبلها قبلة ساخنة. حضن طويل. جاء عسكرى المرور. اخذ معها صورة سيلفى. رفعها على صفحته الشخصية. انتشرت الصورة علــى الفيس بوك. أخذتُ طريقى مترجلاً إلى محكمة مســتعجل عابدين. أريد اللحاق بالجلسة. مررت بعمارة الايموبيليا. تذكرت الخواجة وأنور وجدى وتوفيق الحكيم.. ألم فى ســاقى. كم أنت رائعا أيها الشــارع. فى خلودك. كلهم ذهبوا إلا أنت. أطأك بقدمى.!

٢٦

لا أعرف ما الذى حدث هذه المرة.. تعودت قبل أن أنام قراءة ماتيسر مــن القرآن.. وفــى هذه الليلة التى قضيتها مــع صديقى فى التريقة على شخص يقول أن له علاقة بالجن.. صحوت من نومى الفجر على كابوس.. ثم عندمــا واصلت النوم صحوت فى الســابعة صباحا علــى كابوس آخر أشــد.. وكأنى على قارعة طريق أشاهد ســيارات حديثة تغرق بمن فيها بماء تجمع فى دقائق قليلة.. ثم فى السماء معدات ضخمة تطير وتصطدم بالمبانى والأبراج وتحطمها.. والحطام يحاصرنى وعدد من المارة.. وكنت أنتظر الهلاك القادم لامحالة.. وهبطت مُعدة كأنها مركبة فضاء.. وفتحت نافذتها وظهر منها جندى اجنبى يمســك سلاحا ويصوبه نحونا..ويقول بلغة عربية غير سليمة: دهبها. ويشير بيده اعطونى الذهب..!

٢٧

فى جامع عمر مكرم منذ سنوات كنت فى عزاء صديقى المستشار الجليل وكانت المهابة والوقار عنوان القاعة.. ولاحظنا أن العزاء فى القاعة المجاورة يلعط بالبهرجة والسواريهات وعندما سألت عن المتوفى قيل انه الفنان شفيق جلال.. صاحب.. شيخ البلد خلف ولد، يافرحته.!

٢٨

عرفته فلاح قرارى. قوى البنية. جامد الملامح. داكن البشرة. يجيد الحرث والبذر. فى أوقات فراغه كان يعمل من نفسه شيخ طريقة. يلف الموالد. يذكر يرقص يغنى. الطعام. المريدات. النفحة. مدد.

٢٩

أثناء دراستى بجامعة القاهرة سمعت عن صعود نجم الاغنية الشعبية أحمد عدوية، وأنه تزوج من أجمل فتاة فى الجامعة طالبة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وتناهى إلى سمعى وقتها أنها لاتأكل سوى الشيكولاتة..!

٣٠

فى عيون حبيبتى أرى الوقت.. لا ليس فى الساعة.. فى وجهها أرى إشراقة الصباح.. وقوة الظهيرة.. والخوف من الغروب.. ليس لى حاجة إلى ساعة فى معصمى أو على الحائط أو فى هاتفى المحمول.. ساعة مع الحب بالدنيا وما فيها.

٣١

فــى صباح ممطر وأنا فى طريقى إلى المدرســة والشــارع ملئ بالمطبات والوحل وبرك صغيرة من الماء لم يكن يشغل ذهنى سوى كيف سأدخل من البــاب الذى يمر أمام حجرة الناظر دون توبيخ أو ضرب بســبب تأخرى عن موعد الطابور.. وعندما اقتربت من المدرسة وتهيأت لأن تنصب ألفاظ الناظر الغاضبة على رأسى قابلنى عم سيد فراش المدرسة وقال:

– انت جى ليه، النهاردة اجازة.

– اجازة ايه ياعم سيد.

– اجازة عيد العلم.

وكأنى صحوت من كابوس..عدت إلى البيت مسرورا

٣٢

بــين حافتــى البطانية والطاقيــة لايظهر من وجهــه إلا جزء صغير يتوسطه أنفه المدبب..أحاول إيقاظه ولايستجيب..

ثم قام فجأة وقال:

لــو تعرف يا أبــو حميد حلاوة شــوية النوم بتوع الصبــح. فقاطعته بقولى: قوم بطل كسل.

كانــت قطرات المطر على زجــاج النافذة وثمة هواء بــارد ينتظر من يفتح الشــباك.. وضوضاء فى طرقات المدينة الجامعية.. حركة دائبة من الحجــرات إلى الحمامــات ثم مغادرة المكان على عجــل.. تذكرت زميلى أحمد الذى كان يشاركنى حجرة فى تلك المدينة وبحثت عن وسيلة أعرف أين هو الآن ولكن فشلت كل محاولاتى.

٣٣

صحوت مبكراً وفتحت الفيس بوك ووجدت ثلاثة يعلنون عن حالات وفــاة لأقاربهم فعزيتهــم، وأربعة يعلنون عن مرضهــم أو مرض ذويهم ويطلبون الدعاء فدعوت لهم، وواحدة تبكى قطتها التى ماتت وأصحابها يقولــون لها البقيــة فى حياتك وشــباب لايتركون فرصة إلا ويشــتمون الدولة..

ومجموعة كبيرة نزلت ببوســتات دينية ويطلبون منى أن أقول آمين ويتوعدوننى أن لم أنشر.. ودقت الساعة تستعجلنى بالنزول للعمل.. ولم أكن قد كتبت البوست اليومى الخاص بى..

نزلت مهرولاً ومفتاح سيارتى بيدى.. وانطلقت فى زحام المدينة..

تلاشت صورتى..أصبحت نقطة..دمعة..

لاشئ..

لست أدرى .!

٣٤

وقف فى ميدان طلعت حرب فى وســط البلــد يعرض أعضائه للبيع.. من يعجبه شــعرى.. من تعجبه عينــاى.. من يعجبه عقلى.. من يعجبه قلبى.. الكبد.. الكِلْية.

قل لى كم تدفع..

كل عضو على حدة له ثمن..

ثمن كبير.

نحن فى زمن تجارة الأعضاء. وشراء العضوية فى المجلس النيابى. وبيع الذمم.

لاتبخل وادفع من المال الحرام..

ووقفت سيارة بيضاء ونزل منها رجلان وألبساه القميص وهو لا يكف عن الضحك ويقول :

أنا تاجر تجزئة أبيع عضواً عضواً لا تأخذونى جملة.!

٣٥

انحصر نشاطى السياسى فى جامعة القاهرة بمشاركتى فى جماعة الوحدة العربية بالكليه وفعاليات نادى الفكر الناصرى على مستوى الجامعة.

وذات يوم كنت أقف لأشاهد السيدة جيهان حرم السادات أثناء خروجها من كلية الآداب التى انتسبت لها، وحولها لفيف من الطلبة والطالبات أصحاب الحاجات وكنت آنذاك فى عمر ابنها جمال..كان بجوارى زميلى عادل الذى قال لى أنه شيوعى وأنه يمقت الرأسمالية الامبريالية ويكره أمريكا.

ومرت السنوات ومنذ أيام التقيت عادل فى دار القضاء العالى يتظلم من قرار النائب العام بالتحفظ على فلته بالتجمع الخامس وسيارته المرسيدس ومكتبه الفخم فى المهندسين وحساباته فى بنوك مصرية وأجنبية، وقال إنه عمل مع المجتمع المدنى الأمريكى وتمول كما تتمول الحكومة وأن منظومة المجتمع المدنى التى انتجتها الرأسمالية المستغلة أبدع ماوصل إليه رقى الفكر الإنسانى .!

٣٦

فــى الجامعة كان يمشــى ملكا. لايرغــب فى الجلوس خشــية على البنطلــون المكوى الــذى يرتديه. والقميص المشــجر. يمســك كشــكول المحاضرات بأطراف أصابعه. ومن حين لآخر يرفع يده لتســوية شــعره المنمق بعناية. رفض أن يجلس معنا على كافتيريا الكلية ومع الزميلات. عندما ســألته عن ذلك تكلم بترفع وكبرياء. انه يحب ان يكون معشــوقا لاعاشــقا. انــه ينتظر الفتاة التــى تقول له انى أحبك. أطلقنا عليه اســم نرجس دون أن يعرف.كنا نقول فى حضوره نرجس فعلت كذا وكذا وهو لايدرى اننا نتكلم عنه. قابلت علاء منذ أيام. انه يعمل فى بلاط المحكمة الدستورية. كان يضع فى عروة جاكته زهرة النرجس.

٣٧

كنا فى خيمة واحدة أنا تسليحى بندقية آلى وإسماعيل من بنى سويف عسكرى عادة، تســليحه آر بى جى وجرجس من دمنهور مؤهل متوسط تســليحه بندقية آلى وعجمى من أســوان مؤهل متوســط بندقية آلى.. كنا نــأكل فى وعاء واحــد.. ونبيت فى خيمة بصحراء سيناء..ويســتحم كل واحد فينــا بزمزمية مياه.. وكنا نبكى عندمــا تنتهى مدة تجنيد واحد منا. تجربتى فى الجيش.

٣٨

قالــت فى جمع مــن الصديقات والأصدقاء: أنا وجوزى عايشــين زى الأخوات من خمس سنين..

وكانت هذه الكلمات إشـارة بدء اكبر حملة تحرشـات تعرضت لها المرأة الخمسينية إحسان.

جاءت تطلب المشورة عرضا ماذا تفعل.. وكانت فى الأصل تشتكى من غلاء أسعار السلع مع أن سعر الدولار نزل...؟!

٣٩

قال وهو ضجر:

خضعنا لاسـتعمار تركى ثم انجليزى لعشـرات السـنوات ثم عندما حكمنا أبناء جلدتنا منذ الخمسـينات تفرغنـا لتخوين بعضنا البعض أو لتكفـير بعضنا البعـض واكتملت الكوميديا السـوداء بحروب أهلية فى بعض الدول العربية ليقتل بعضنا البعض.!قلت إنها المأساة.

وجمعنا صمت.

٤٠

التقيته منذ أيام فبادرنى بقوله:

احنا اللى خربناها.!

كان موظفا فى شـركة قطاع عام تنتج وتصدر ملابس من القطن المصرى (تريكونا) ولم يتفق عمال وموظفى هذه الشـركة على شـئ قدر اتفاقهم على تعطيل الانتاج والكيد لقيادات الشـركة ولا أحد يستطيع أن يفصلهم طبقا لقوانين تحمى العاملين من الفصل.. وقد انتهى الأمر ببيع الشـركة بأبخث الأثمان وتسريح العمال..

ومما يذكره سـلامه السـيد أنه عندما كان يريد الحصول على اجازة

ولايوافق رئيسه على الطلب كان يشرب عدة فناجين من القهوة السادة تباعا، فيرتفع الضغط عنده ويطلب تحويله لطبيب الشركة الذى بمجرد أن يقرأ قياس الضغط يعطيه أجازة فورا وينصحه بالراحة التامة.

٤١

كانت تجلس بجوارى فى القطار المتجه إلى الإسكندرية. بينما أنا كنت منشغلا بالنظر من النافذة على الحقول الخضراء التى أزيلت، وطلعت مكانها مبان أسمنتية على طول الطريق.كانت هى تقص حكايتها. وقفزت أمامى عبارة تقول لايمكن أن تقوم حضارة إذا وقعت الغابات تحت ضربات الفؤوس. قالت إنها تعيش حياتها فى هدوء. إذا كان لابد من الزواج فيجب أن يكون وزيرا، وعندما مر الوقت لامانع أن تقبل شخصا بلا عمل وتنفق عليه. القطار يسير بسرعة. ابتلع الطريق. أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها. أصلحت بعض الخطوط والألوان فى وجهها. ابتسمت. قالت: أنا جميلة أليس كذلك. دخل القطار المحطة.!

٤٢

بعد حياة مليئة بالحرية والانطلاق فى قريته، قرر أن يهاجر إلى المدينة، أسلم نفسه لعمل يقضى فيه ثمان ساعات يوميا مربوطا إلى مكتبه، وأحيانا عشر لمدة خمسة عشر عاما متواصلة، كان راضيا كرضى حيوان متوحش حبيس القفص فى حديقة الحيوانات. إلى أن قابلها، تزوجها، كانت رائعة، بعد عام تركته. لايعرف أين ذهبت. قيل انها هربت مع الميكانيكى وعاشت معه فى مدينة قريبة. قضى ثلاث سنوات

يبكى. فــى ليلة وجدها قد عادت. تقبلها. لم يعاتبها. اســتأنف حياته معها. قال لى لا أريد ان تفلت باقى سنوات عمرى فى البكاء. !

٤٣

قــال المثقف: الجيش بيدير البلد اقتصاديا وسياســيا وأمنيا وإعلاميا منذ ثورة يناير حتى الآن وكأن الثورة قامت من أجل ذلك.

قــال المعلم: يعنى هــو جيش دولة تانية.. أهو أحســن من ســوريا والعراق.

قال غزال صبى المقهى: طول ما القهاوى شــغالة وبتكسب وانتوا على طــول قاعدين تتفرجوا وتنكتوا وتغمزوا بعض بالترامادول والفياجرا من تحت لتحت ياما ح تشوفوا.

غادرت المجلس ! !

٤٤

ماذا يفعل المايسترو إذا كان العازفون لم يضبطوا آلاتهم ونسوا النوتة فى المنزل ولم يحفظوا اللحن.؟!

قــال صديقى ونحن فى المســرح الكبير بدار الاوبــرا: أكثر من مائة عازف على المسرح.. اللحن نشــاز.. ثار الالاتية على المايسترو، ومزقوا بدلته الأسموكن وأخفوه تحت كرسى العازف السمين.. وخرج من بينهم مايسترو جديد بملابس مختلفة يبدو أنه من فرقة الموسيقات العسكرية.. يشــير لهم بعصاه فيخرج اللحن ممزق الأوصال.. خلع نعلية وأخذ يشير بهما واللحن لايريد أن يستقيم.. العازفون غاضبون من المايسترو الفاشل..

اللحن النشـاز يملأ الأسماع.. حاول أحدهم أن يعزف صولو ولكنه نسى باقـى اللحن وأخـذ يرتجل.. سمعت مجموعة من الشـباب فـى المقاعد الخلفية يرددون: وزة بيضا حلوه.. وزة بيضا حلوة.

وأتى صوت فتاة تسـتغيث.. تداخلت الأصوات والاسـتغاثات.. ساد الهـرج والمرج، انصهرت فخامة المكان فى فوضى السـلوكيات.. وإذا بى على شـاطئ ترعة وأسراب الأوز الأبيض تتهادى فوق صفحة الماء.. أنظر إليها وأنا ممدد تحت شـجرة صفصاف فى سـاعة مبكرة، قطرات الندى على أوراق الشـجر.. شاهدت الأوز يتساقط شـهيدا برصاصات تأتى من مكان خفى.. استيقظت من غفوتى منزعجا.. قلت لصديقى أريد أن أذهب إلى قريتـى فرد بحزن القرية بالنسـبة لنا خزان ذكريـات ومكان للدفن حين نموت.

٤٥

مـع كل اللى احنا فيه بندعم الريس فى رحلتـه لأمريكا. احنا ولاد بلد.وكل واحد بيعمل باصله.!

قالها المعلم وهو يرص حجر المعسل.

رد المثقـف عليه: انت طيب قـوى يامعلم، الراجل جه يعوم الجنيه غرقنا احنا.!

شـاهدت وقوف سعد باشـا زغلول على كرسـى وقال خطبة عصماء بصوتـه الجهورى ختمهـا بقوله مفيش فايدة فصفـق كل من فى المقهى وهتفوا سعد سعد يحيا سعد.!

٤٦

أمونة وربيع. نادت أمونه وكان عمرها فى هذا الوقت ٨٥ سنة على حفيدها الشاب الصغير وقالت: ياولد ياربيع يوم ما أموت لازم تطبل وترقص انت وأصحابك وتزفونى لحد القبر.

ويوم إن ماتت أحضر ربيع طبلة واستمر يرقص حتى أوصلها إلى مثواها الأخير بعد أن إستحى الرفاق أن يشاركوه فى ذلك. كان ربيع يرقص ويطبل ويبكى فى ذات الوقت وسط الجنازة التى اخترقت القرية وعندما نهره أحدهم. قال: أنا انفذ وصية ستى أمونة.

أمونة وربيع كانوا يحبون البهجة ويواجهون الموت بالفرح.

تذكرت حكايتهم عندما كتب أحد الأصدقاء بوست يدعو فيه إلى تكوين جروب يوافق اعضائه على ان يجعلوا يوم جنازتهم ملئ بالبهجة.!

٤٧

احنا ماكناش بنات !

قالت السيدة لجارتها

– ليه ياأختى كفى الله الشر ؟

ردت الجارة وهى تعدل شنطة الخضار التى تحملها بعد جولة فى السوق.

– قطع الانترنت وسنينه.

– هو فى زينا احنا كنا حاجة تانية

واستمر الحديث بينهما على اعتبار أن جيل ماقبل الانترنت مختلف ومتميز وأحلى من جيل مابعد الانترنت.

لم أقطع حديثهما.

٤٨

خربتها ياريس واللى كان كان.!

فجحده المعلم بنظرة لاتخلو من معنى.

أقولها ورزقى على الله واللى بيعطينى حاجة يمنعها.!

توجه المعلم للصبى غزال بالكلام :

روح البيت وقول للحاجة إن المعلم وراه مشوار ومش جى على الغدا وخليها ماتطبخش المحشى وتخليه لما يرجع.!

نظر لى كأنه اكتشف وجودي!!

٤٩

تضايق الرجل من عجزه عن الوفاء بمصروفات المنزل وسداد ديون الكهرباء.. أيقظه ابنه فى الصباح يطلب مصروفه قبل أن يذهب إلى المدرسة فنبح فى وجهه هو هو هو. جاءت الزوجة تطلب مصروف البيت لشراء الطعام فنبح فى وجهها أيضا هو هو هو. استاغثت بالجيران فحملوه إلى مستشفى الكلب.. سأله الطبيب عن حالته فنبح فى وجهه هو

هو هو. تم احتجازه فى مستشــفى الكلــب، وعندما أغلقوا عليه الحجرة وحيدا أخذ يضحك ويضحك ويتأمل طعام المستشفى المجانى اللذيذ. ! وانتقلت عدوى الضحك إليّ وإلى للحاضرين.

٥٠

وأنا نــازل قابلنى جارى المهندس نادى يصطحب كلبه والأسانســير عطــلان، وقال لى لا تتضايــق البواب حرامى ورئيــس اتحاد الملاك غبى والسكان لايفهمون فقط يثرثرون ويكذبون على بعضهم البعض. !

٥١

قــال ليس من الوقار أن يتكلم الرجل الكبير فى الحب. ورد عليه أبو شــنب بريمة بقوله: ولافى السياســة. فخرج المثقف عن سكوته، وقال: والاســتثناء أن يكون من أهل الطبل والزمر. ووضع الرجل التخين مبســم الشيشة من يده وقال وهو يضغط على الحروف الصمت لغة العظماء. ! نظرت له ونظر لى. كنت ألوذ بالصمت! !

٥٢

الحب فى عصر الانترنت. انا من جيل الأغنية المشهورة عايز جواباتك خدها. وما كان يحيط بكلمات وصوت المطربة من شجن. لم أتوقع أن أدرك عصر الرسائل الإليكترونية. وادينى رنة انزل لك. والشات والواتس أب. لم يعد فيلم البوســطجى ســوى قطعة جميلة فى محــل الانتيكات. الآن أستطيع ان أعبر عن مشــاعرى نحوها بسرعة وتصل رسائلى فورا. مهما

كان المـكان والزمان. فى أى بقعة مـن العالم. آناء الليل وأطراف النهار، ولكـن من المؤكد أنـه لم يعد هناك محل وقت الخصـام أن يقول الحبيب لحبيبه عايز جواباتك. خدها!!

٥٣

قـال لها أحبك. قالت له لا لا أنت لا تعجبك أفكارى ولا تعمل لايك لمنشـوراتى. فكيف تحبنى؟ قال أنـا أتابع كل ماتكتبيه، وهو جيد، ولا أعمل لايك أو كومنت لأن البصاصين كتير وأخاف يحسدونا. عانقته وهى تقول أنا ظلمتك ياحبيبى !

تململت فى جلستى على المائدة المجاورة لهما فى كازينو الشجرة.

٥٤

عندما يجلس خمسـة مـن الأقارب فى حجرة واحـدة ولا يجدون ما يقولونه وبعد أن يسود الصمت يخرج كل منهم الموبايل من جيبه ويتصفح ويتحاور مع عالم افتراضى من الأصدقاء..

قالت: ما اتعسنا.!

قال: إنها الحياة فى القرن ال٢١

وساد صمت طويل قطعه الثالث:

لقد فعلنا بأنفسنا ما فعلته القنبلة الذرية بهروشيما.

وبعد صمت آخر قال الرابع:

ما أسعد الأعداء بنا..!

وتواصل صمتهم وصمتى.

٥٥

قالت: الجو اليوم رائعا.!
قلت: إنه فعلاً رائعا.. يناسب من يريد شنق نفسه.!

٥٦

وصلت إلى الجزء الممل من الرواية التى أقرأها.. قال النيل: كنت أسمع أغانيكم وأنتم على الشادوف والنورج وبجوار السواقى وأثناء جمع القطن و نقل المحصول بالجمال والحمير من الحقول إلى البيوت والمخازن.. الآن بنيتوا منازلكم على الأرض الزراعية وجعلتونى مدفنا لمواشيكم النافقة وقضيتم الوقت أمام التلفزيون وفى جيوبكم أقراص الترامادول والفياجرا المحلية.. أصابتكم لعنتى.!

كان الفلاح الذى يصطحب بقرته ويمشى قريبا منى يعتذر لها عن ضربه لها بالفرقلة، ويقول بصوت حزين إنه أيضا يتعرض للضرب من مالك الزريبة..

وخرجت من النهر امرأة جميلة بل رائعة الحسن نصفها السفلى على شكل سمكة وأخذت الرجل من بقرته وراحت تراقصه على نغمات أغنية بشرة خير.

٥٧

أحاديث شاطئ النيل.. قال الأول: الدولار ب١٨جنيه.. قال الثانى والجنيه ب١٣٥دينار عراقى. وب ١٧٠ ليرة لبنانى وب ٢٥ليرة

سورى.

قلت: دنيا!!

٥٨

ياريت زمان الصبا يرجع وأشوف لى يومين.

هكذا قال المغنى الشعبى من ميكروفون أحد المراكب. كنت أجلس على شاطئ النيل مع مجموعة من الأصدقاء. قال أحدهم: مإلى أرى النهر ذليلا بعد أن كان كاسراً جباراً وتوسل له المصرى القديم بالقرابين ليستدر عطفه، وقال الثانى انه نبع من دموع إيزيس. وقلت لايزال البعض يخشاه حتى الآن ويقسم بقداسة مائه. رد الأول: كان الفلاح ينسب الوفرة أو القحط إلى إله يمشى على الأرض اسمه فرعون. فرد الثانى ضاحكا: إنه لايزال موجودا يفرض الضرائب وفاتورة الكهرباء..

ضجت الجلسة بالضحك ووجدت ابن خلدون أمامى يشرح كتابه (أثر الهواء فى أخلاق البشر) ويقول إن مصر من الأقاليم الحارة التى يتفشى فيها التهريج ويغلب على أهلها الخفة والغفلة عن العواقب.!!

٥٩

قال المعلم: قلبى ارتاح لكلام الإمام.

قال المثقف: لا أرى ضوءً فى أى مكان.

قال الصبى: واحد حلبسه ورص شيشه.

قلت: الدخان يملأ المكان.

٦٠

تابعت لقاءات بابا الفاتيكان أثناء زيارته لمصر.. وعند لقائه بالبابا تواضروس لم أستطع الإفلات من تأمل ملابس الرجلين. حيث ملابس الأول تتسم بالبساطة بينما ملابس الثانى فخمة مطرزة بخيوط ذهبية ويحمل فى يد عصا وفى الآخرى الصليب، وقلت هذا هو الفرق بين سحر الشرق وبساطة الغرب. وفى المساء كنت أكمل قراءة رواية جورج أورويل التى بعنوان ابنة القس ووجدت حوارا بين دوروثى ابنة القس وشخص اسمه فيكتور تقول فيه: (حسنا لكنى لا أعتقد أن الثياب ذات أهمية كبيرة كما تعتقد أنت.. اعتقد أن روح القس هى الأكثر أهمية وليست الثياب التى يرتديها)وكنت قد دخلت فى الحوار لا إرادياً وقلت البابا تواضروس ملابسه جميلة وروحه أكثر جمالاً وهو بلدياتى أيضا كنت أتلقى تعليمى فى دسوق وهو كان على بعد أميال فى دمنهور.

٦١

قال المعلم: سمعت خبر غريب يقول إن اسرائيل تقصف سوريا لصالح الثورة السورية.

قال المثقف: اختلطت المفاهيم والرؤى.

قال الصبى: آه لو لعبت يازهر. !

غادرت المقهى.

٦٢

قـال المعلم: من يطالع الفيس بوك اليوم يقول: إن الناس لديهم كبت جنسى.

قال المثقف: يرى فرويد أن كبت الرغبة الجنسـية منذ الصغر وقهر الذات وراء كل مايحدث من انحرافات.

قال الصبى: عبيله واديله.!

هممت بالانصراف.

٦٣

رحلة غسـيل الهموم السـنوية. المولد. مدد. ريحنـى. وأعطف على حإلى. فى جناج مولد الشـيخ بصيلـة. طفولتى. تياترو عايدة صابر وفقرة السـاحر. فرقة نظيم. الليلة الكبيرة لمولد السـيدة. جلسـت فى خيمة، أو خدمـة الشـيخ عبد الفتـاح ووجدتنى فى القرن قبـل الماضى، وأمامى الشيخ محمد عياد الطنطاوى الأزهرى من قرية أبو حمر المجاورة. الذى اختاره قنصل روسـيا لتدريس اللغة العربية بمعهد الدراسات الشرقية بسان بطرسـبورج، ومنحه قيصر روسيا وسـاما رفيعا وكتب على قبره أنه مستشـار الدولة. وكان سـيد مكاوى قد ضبط العـود على مقام رصد. يا ناسـينى وانـت على بإلى. وعنيـا مجافيها النوم يامسـهرنى. الوداد والحنيـة. الحب الإلهـى والحب الدنيوى. خليط عجيب. يصبه المنشـد فـى القلوب الطيبة التى تحوم حول المقام فى الليلة الكبيرة. ابتسـامات ودموع. لقاء ووداع. وتساؤل هل تلتقى الوجوه فى العام القادم.

٦٤

ليس أمامى سـوى أن أقتلها.. حاولت إبعادها أكثر من مرة.. ولكنها مصممة على إلحاق الأذى بى ومص دمى.. ناموسة سخيفة.!

٦٥

قال المعلم: وازاى أحتفل بعيد تحرير سـينا وأبنائنا بيتقتلوا كل يوم هناك.

قـال المثقف: الحرب ضد الإرهاب أصعب مـع أن تحريرها قبل كده كان بموجب اتفاقيات ومفاوضات.

قال الصبى: أنا لازم آخد اليوم ده أجازة ماليش دعوه.

قلت: حقك.

٦٦

على مدى ثلاثة شـهور فشل حامد فى الاستمرار فى أكثر من وظيفة التحـق بها.. أراه دائماً يمسـك بالأى باد ويكتب بوسـتات يصف فيها المجتمـع بالانحطـاط والحكومة بالعمالـة والقضـاء بالتبعية ومجلس النواب بالفشل ويفتى فى تفسير كل الأحداث بلا معلومات موثقة و و و.

وكنت شاهد عيان على ما قاله الحاج فتحى فى مواجهته:

يا ابنى النضال الحقيقى إنك تحتك بالواقع العملى.. انزل وانجح فى أى شغلانة وحقق ذاتك وبعدين إلعب فى التنظير..

٦٧

قال المعلم: أتعجب ممن يسخرون من شراء الجيش لغواصات وأسلحة.

قال المثقف: يريدونه جيشـا بلا عتاد مع علمهم أن المنطقة كلها على فوهة بركان.

قال الصبى: غير حجر للمعلم.!

قلت: أليس منهم رجل رشيد؟!

٦٨

قال المعلم: ما يميز مصر الآن ليس وجود الهرم أو النيل إنما الجيش.

قال المثقف: الإرهاب اتعولم يامعلم.

قال المعلم: يعنى إيه؟!

قال المثقف: ألاف الشباب من أوروبا من غير المسلمين انضموا لداعش.

نزل صبى المقهى بالشيشة والشاى وهو يقول: أيوه جاااى

قلت: شرق أوسط جديد.

٦٩

قلت: لن أكتب فى السياسة ولا فى الدين.

قال المتحمس: أكتب ونحن معك.

قال العاقل: أكتب فى الهجايص وخلاص.

قال الصامت دائما: أكتب ونقتسم السجن سويا..!

٧٠

قال صديقى: أحن إلى عصر الاستبداد.

قلت: كيف ؟!

قال: كنت أحسبها ثورات بغرض تغيير أنظمة مستبدة فإذا بها خطة لتدمير دول وقتل وتشريد الملايين من البشر وسحق الإنسان.

أحن إلى العراق صدام وليبيا القذافى وسوريا الأسد.

٧١

كنت فى السادس الابتدائى وكانت شهادة وفى المدرسة طلبوا عدد من الصور الشخصية مقاس ٤×٦، وذهبت وحدى إلى الإستوديو الذى أعارنى كارفاته ولقط الصورة.. كانت لدى لهفة أن أراها.. وحلمت بها.. وذهبت فى الموعد لاستلامها.. أعطانى الرجل عدد كبير من الصور لكى أتعرف علىى صورتى.. وبحثت كثيرا. كدت أقول لم أجدها.. ومن باب الاحتياط حجزت صورة على جنب خمنت أنها تشبهنى. صورة أبيض وأسود. لأول مرة أرى صورة شخصية لى قال البعض عنها إنها تشبه صورة محمد على كلاى. الان أعيش عصر الصورة. صورة سيلفى. كل يوم. كل لحظة. صور. صور..

٧٢

اشتكى لى صديقى من انه كلما فتح الفيس بوك وجد الكل ينصح ويتدروش ويعمل من نفسه خبير تنمية بشرية أو شيخ مشايخ المحروسة..

وقال هم كلهم تمام ما عدا انا ؟!
فنصحته بالصبر.
قال حتى أنت ! !

٧٣

أخرجــت من جيبى جنيها فوجدته مبتلا. قال كنت أعوم. قلت نحن نتجرع فيوضات تعويمك. حدث ذلك فى مقهى بوسط البلد كان يجلس بها الجبرتى الــذى كتب: عندما انخفض النيل ونزل القحط. ترك الفلاحون قراهم من الفقر. وانتشروا فى القاهرة. بنسائهم. وأطفالهم. يصيحون من الجوع. ويأكلون مايتســاقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره فلا يجد الكناس شيئا يكنسه. ومات كثير من الفقراء.

ونظــرت على الجانــب الآخر من الطريــق فوجدت طفــلاً من أطفال الشوارع يستخلص طعامه من صندوق القمامة.

رجعت إلى الجنيه. قلت كفايه عوم يا صاحبى.

٧٤

تحذيرات كثيرة.. وأفلت من مكحلة جارتنا أم حســينى التى تجمع الأطفال، وتقوم بتكحيلهم صباح يوم الســبت سبت النور وإلا سيشتكون من وجع العين طوال العام. ويوم الاثنين شم النسيم لابد من الاستيقاظ من النوم مبكرا والذهاب إلى النهر وإلا ســأظل طوال العام مصاب بالكســل.. الرحلة من ســيدى إبراهيم إلى سيدى أبو المجد فى البر الثانى تستغرق ربع ســاعة فى مركب صغير. كنت أرى النهر محيطا وأسأل الله السلامة فالخوف كان يملأ قلبى الصغير.

وأرجع من رحلتى آخر اليوم. وألاحظ البصل المعلق على أبواب البيوت مشنوقا أو مصلوبا لست أدرى. وبقايا فسيخ أبو طاحون تملأ أرجاء المدينة.. وينادى البائع على بضاعته رحمانى يا يصل. نسبة إلى بلدة الرحمانية. وتثير غبار الطريق سيارة فيات ١٣٠٠خضراء عائدة من الإسكندرية. كانت هى السيارة الوحيدة فى شارعنا يملكها صاحب مستودع أنابيب البوتجازً

٧٥

وسرت بجوار الجامع وعند بيت زينب خاتون تقابلت معهم وكانت ثمة امرأة على وجهها برقع تسير على استحياء بجوار الحائط وكانت ملابسها السوداء تنم عن جمال فعاكسها أحدهم وهو ينظر إلى شخص يحمل آلة العود بقوله عودك حلو ياولد. وشرد ذهنى ووجدتنى مع مجموعة من الأزهريين والأعيان وطلبة المدارس وقال كبيرهم ماذا فعلتم بالبلد من بعدنا لقد ناضلنا ضد الحملة الفرنسية وطالبنا بالحكم طبقا للدستور من أسرة محمد على وقاومنا الاحتلال الإنجليزى وأشعلنا ثورة ١٩١٩ فماذا فعلتم انتم..انعقد لسانى.. أشرت بيدى إلى عبارة كانت مكتوبة على حائط قريب نصها تيران وصنافير مصرية وقريب منها عبارة بحروف باهتة تقول تسقط اسرائيل.

٧٦

قال الصمت حيال كل ما يدور حولك هو بكم والصمت الذى تقطعه بما يهم عشيرتك فقط هو طائفية أجعل صمتك مثل السكتة فى الموسيقى بعدها ينطلق اللحن.

قلت بعــد أن نام الدرويش وخلوت بشــيخى أما الســاكت عن الحق فشيطان أخرس فرد ضاحكا وهل منكم من يعرف الحق.

٧٧

قــال العدالــة.. فهلل الجميع نحــن معك.. قال عدالــة توزيع أعباء الضريبــة.. غادر البعض المجلس.. قلت من المهم ان تخصص.. الكلمات العامة لم يعد لها معنى...

٧٨

لحظة مدهشة أن تتجمع خيوط الأحداث بين يديك بمجرد أن تستعمل جهــاز تحمله فى جيبك.. كنت أنتظر قدوم عمى فــى العيد من القاهرة لكى اسأله عن حقيقة بعض الأحداث. فى القرية انحصرت مصادر خبراء السياســة فيما يتناهى إلى سمعهم من إذاعة صوت العرب، وعند التدقيق يقارنوه بما سمعوه من إذاعة لندن أو اســرائيل. العلم لادين له ولا وطن. ولكــن كان افضل ما أحصل عليه من عمى القــادم من القاهرة هو بالتاكيد النقود الورقية الجديدة. فلنركب المراجيح..!

٧٩

فى أول رجب ذهبت لزيارة قبر جدى، وتذكرت طفولتى. ونصائحه أبى وأعمامى بالإبتعاد عن الكلام فى السياسة فى الأماكن العامة. كل شئ يصل. لم يكن جدى ضد النظام ولكنه كان يرى ان من حقه نقد تصرفاته. وحول مائدة العشــاء سمعتهم يتهامسون حول القبض على إخوان فى

القضابة والمنشـلين وكفر سالم وشيوعى واحد فى دسوق. الآن جدى وأبى وأعمامى يجتمعون فى مكان واحد.يقولون مايريدون. يمارسون الحرية. دون خـوف. دون أن يزايد عليهم أحد. لايخافون زائر الفجر. تركوا كل شئ لنا.

٨٠

قـال وهو ضجر لما يجـرى: الفيسـبوك مجمع الحماقـات.. أفراده مخلوقات متحمسة وعصبية وانفعالية بشكل مرضى.

فرد صاحبه: اعتبره كلام جرايد صفراء.

قلت: نحن بعضهم.

٨١

لقد استقطب الإعجاب واسـتقطب بدرجة أكبر الأحقاد. يزورنى فى اليقظـة والمنـام. وبينما كنت أناقش أقاويله الأخـيرة مع أصدقائى دخل علينـا رجل قد يكون هو. يقول كلاماً كثيراً ويدّعى الدروشـة وبين فقرة وأخـرى من عرضه الشـيق كان يقول مدد. كان فى السـيد البدوى بطنطا منذ دقيقة وها هو الآن معنا فى الفيشاوى يزور الحسين. اذكر الله. قالها عندما وشى به أحد الجالسين انه هو.

وعندما استشعر انكشافاً لحيلته قال:

أنـا حاكم الولاية تخفيت لأتفقـد أحوالكم، وما أوصلنى لهذه الحالة أنـى إذا أثنيت عليكم هتفتم لى، وإذا شـتمتكم هتفتـم لى ،وإذا فرضت الضرائـب هتفتم لى، وإذا خففتها هتفتم لى، وإذا رفعت الأسـعار هتفتم

لى، وإذا خفضتها هتفتم لى، وإذا حبست الناس هتفتم لى، وإذا افرجت عنهم هتفتم لى.. أصبحتم بالنسبة لى لغزاً أحاول فك طلاسمه فلبست الخرقة وسرت فى الطريق ألتمس المعرفة..

٨٢

عندما جمعنا مجلس المقهى فى المساء كانت الهموم بادية على وجه الدكتور زكى الذى يستعد لجلسة علاج فى الغد عند سلامة. وكان صديقنا على أراد ان يوجه له رسالة بطريق غير مباشر فأخذ يقص حكاية زواجه من نجوى. عندما قابلتها كان عمرى فى نهاية الثلاثينات، وهى أصغر بسنوات قليلة. كنا نتقابل ليدب بيننا الخلاف. ونفترق. ونتقابل مرة أخرى لكى نتخانق. ميولها يسارية متطرفة. وكانت تقول عنى انى يمينى رغم انى لا أرى فى نفسى سوى انحيازى للحريات الفردية وإعجابى بالنموذج الغربى فى حقوق الإنسان.

كانت تخرج من عملها كمهندسة فى شركة كبيرة فى الثالثة عصراً. ونتقابل ونأكل سندوتش الشاورما من أبو حيدر ونجلس فى باميرا نحتسى القهوة، ويشتعل الخلاف حول كل شئ بما فيه قولها لا أتصور مجرد التصور أن أرتبط بشخص مثلك. و ذات مساء جلست مع نفسى وقلت. لابد ان أتخذ قراراً حاسماً. لو أطلت التفكير والتردد منتظراً الزوجة المثالية والحب الحقيقى المخلص فلن أتزوج أبداً. إنها متعلمة ومثقفة وتجيد الطبخ والحديث وليست دميمة، وذات يوم وقفت على بابها أطرقه. وعندما عرفت أنى قادم بغرض طلبها للزواج طارت من الفرحة. وشرعنا فى حياة زوجية فريدة ليست مبنية على الاتفاق بل على الاختلاف.!

٨٣

وقبل أن يغادر الشقة فى مشواره لقبض المعاش كان الدكتور زكى يقف عند الباب متوهما أنه نسى بطاقة الرقم القومى. هذه المرة تحسس البطاقة وقال فى نفسه..أنا نسيت أحب.. فى الثانوى كان لازم أنشغل بالدراسة لكى ألتحق بكلية الطب.. فى الجامعة كان كل همى أنى أتخرج لان أبى كان يئن من كثرة ما تتطلبه الدراسة من مصروفات.. بعد التخرج انشغلت بالشغل.. وفجأة وصلت إلى الستين.. لماذا تجرى السنوات.. كيف جرى العمر.. من سرق حياتى.. بعد خروجة من منزله غير اتجاهه.. ذهب إلى رجل أشتهر بعلاج الأمراض النفسية والعضوية ولا يتقاضى أجراً.. جلس أمامه فى خشوع.. تمتم الرجل الذى يجهل القراءة والكتابة على كوب من الماء ببعض كلمات.. وأطلق البخور.. وأمره سلامة بشرب الماء.. وقال إن عفاريت تتلبسه.. وهناك جنيه تعاشره وهذا مايصرفه عن الزواج.. والأفضل أنه لم يتزوج فى الفترة السابقة؛ لأن العفاريت كانت ستشاركه زوجته.. سمع الدكتور زكى تشخيص الحالة فى ذهول مخلوط بالتصديق.. وتم الاتفاق على عدد جلسات العلاج ومايلزمها.!

٨٤

رجع عادل فى الساعة التاسعة مساءً على غير عادته كما قال لى.. يحمل عشرة ارغفة ساخنة من الخبز.. وضعهم على السفرة.. جاءت زوجته بطبق البطاطس المهروسة بالزيت والثوم.. تخاطف الأطفال

الأرغفة الساخنة.. أكلوا جميعا حتى الشبع.. قالت البنت الصغيرة: أكلة جميلة. قالت أختها الكبيرة: وغير مكلفة. قالت الزوجة ضاحكة أنا سعيدة بحضورك للعشاء مبكرا.. قال الأب إنه أول يوم فى ظل قانون طوارئ.. يارب زدها نعمة واحفظها من الزوال.!

٨٥

تحولنا إلى آلات كاتبة تنقر كل دقيقة مليار حرف.. لكنها تعجز عن كتابة جملة مفيدة واحدة.. ألات تنقر مثل العصافير.. أصابع فوق الأزرار أما العقول فغائبة عن الوعى.. السيد مارك يجنى المحصول..

أخرجت الألة الكاتبة الممتازة من مخزنى.. قبلتها. وضعتها فى صدارة المكتب. نفضت الغبار عنها. وبحثت عن شريط. وأخذت أدق بأصابعى على أصابعها كمنت شسيب.. كمنت شسيب.. عادت الموسيقى التصويرية التى كنت أكتب معها مذكراتى.

ابتسمت للألة العجوز. أسدلت عليها غطائها. جلست أفكر.!

٨٦

كانت تراقصه والدموع فى عينيها. الموسيقى ناعمة. القمر على الباب. نسيم عليل هز أوراق شجرة الصفصاف قبل أن يداعب خدودها الوردية. من الترعة يأتى صوت حجر ألقى فيها توا. الفلاح وعروسة البحر. قال لها: انس والا جن؟!! قالت أعشقك منذ سنوات وتعاشرنى معاشرة الأزواج ثم تسأل هذا السؤال السانج يافلاح !!

٨٧

حضرت جلسة واحدة لنجيب محفوظ فى كازينو قصر النيل وحال بينى وبينه الحرافيش بأجسادهم المترهلة وحناجرهم القوية والتفافهم حوله كسور من الفولاذ يمنع الآخرين من النفاذ إليه..ولم أحضر بعد ذلك.

٨٨

دائما يتغزل فى فنجان القهوة وإذا سأله القهوجى ماذا تطلب قال ينسون.؟!

٨٩

قال إن شقيقته هى التى وشت به.

هى متزوجة من رجل متدين، أنجبت منه أحد عشر طفلاً. ودخل السجن نتيجة هذه الوشاية لضبطه متلبسا بتدخين سيجارة محشوة بالبانجو مهداه له من صديق. وبعد أن خرج من السجن قبض على رأسها وحلق شعرها زيرو. اندهشت مما حكى فباغتنى بقوله ترقب ما الذى سأفعله بزوجها وصمت لحظة ثم قال سوف يقطع الخلف..!!

٩٠

قصدنى أن أساعده فى الحصول على وظيفة عامل فى أحد المساجد. طلبت منه أن ينتظرنى فى مقهى بجوار وزارة الأوقاف. تأخرت

عن موعده بسبب ازدحام الطريق. أثناء ذلك جاءه بواب من عمارة الايموبيليا، وقال له إن لديه فى العمارة أسرة خليجية لديها بنت مريضة نفسيا ولم يتحسن حالها على علاج الطبيب ويريدون عمل رقية شرعية لها. ذهب مع البواب وكانت الرقية وزادهم من عنده حجاب قائلا حجاب الشيخ حسن سره باتع. أغدقوا عليه. بعد أسبوع كانت فى الحارة سيارة فخمة يسأل سائقها عن بيت الشيخ حسن؛ ولأن الحارة كانت تعرفه باسم زعبله فقد أنكر أهل الحارة وجود شيخ لديهم بهذا الاسم لولا مروره مصادفة؛ صافحه السائق وفتح له باب السيارة وأخبره بتحسن الفتاة نتيجة رقيته وحجابه وأن أهلها يطلبونه. اكتسب مكانة لديهم ومالا. نسى الوظيفة وأخذ يبحث عن كتب مثل النور الربانى فى العلم الروحانى ودليل الحيران فى طالع الإنسان.

واشتهر حجاب الشيخ حسن أبو سر باتع...!

وظهر فى الفضائيات..

وله رحلات شهرية إلى الخليج لعيادة مرضاه..!!

٩١

لم يعشق سوى السيجارة. يصاب بقلق غير عادى إذا لم يكن معه علبة مغلقة إلى جوار علبة سجائره المفتوحه. هاجسه إن يحتاج سيجارة بعد منتصف الليل ويجد المحلات قد أغلقت. لا علاقة له بالمرأة. يعيش وحيداً فى شقة إيجار تركها له والده قبل أن يموت. معاش صغير عن والده أيضا. لم يعمل فى حياته. لم يحظ بوظيفة بعد تخرجه من الجامعة حتى تجاوز الخمسين عاما. يضحك كثيرا. ينام النهار. يصحو الليل.

يسخر من صراعات الجيران والأقارب. يأكل اقل القليل من أرخص الأطعمة. يأكل فقط من أجل أن يستطيع أن يدخن. سيجارة..!
حاولت أن أخرجه مما هو فيه فرفض!!

٩٢

وجدت طلب صداقة أمامى فوافقت عليه. بعدها فوجئت برسالة على الخاص. قال بعد اختطاف الثورة ذهبت إلى لندن. بداية جديدة. أنا هنا مع بناتى فرح ودعاء ورحمة. فشلنا فى تحقيق مطلبنا بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية. زوجتى عايده لاتزال بالقاهرة. أتابع منشوراتك. إنها تعجبنى كثيرا. أنا عندى (٦٦) سنة. أشتغل موسيقى. أرجو أن تدوم صداقتنا. أشرف..

٩٣

فى رمضان الماضى كنت ألاحظ رجلاً يمنيا يصلى معنا التراويح. الابتسامة تعلو وجهه. يحرص على إرتداء الملابس اليمنية التقليدية. كأنه فارسا. سيفه فى غمده. وعندما علمت بحالات الكوليرا فى اليمن والحرب التى تدمر كل شئ. تمنيت للشعب الطيب السلامة. وأن أرى صديقى اليمنى معنا فى صلاة التراويح هذا العام.

٩٤

راودتنى أحلام مبهمة غير شريفة. الهجرة إلى الخارج. الانكفاء على الذات. الساحرات الشريرات. السكر من خمر محبتى. حياة التسكع

والتشــرد. الضياع فيما هو ضائع. لاشئ يهم. وتبلغ مأساتى ذروتها عند الاقتناع بأن لافرق بين موت وحياة. ثم فوجئت بالصرخة المدوية: أصعب الأيام يخرقها الزمن. وجلســت أشاهد فيلم إشاعة حب. من خلال شاشة كبيرة من اليوتيوب.

٩٥

قال المعلم: الأسعار نار.
قال المثقف: الجحيم حالة وليست مكانا.
قال الصبى: ياحلولى.
قلت: دنيا!!

٩٦

قال المعلم: مصر مش طابونة.
قال المثقف: قضيت عمرى أدرس ثلاثة مفاهيم (التبعية) و(التحدى الحضــارى) و(الغزو الثقافى) وعشــت حياتى كلها فى قلق بســبب هذه الكلمات.
قال الصبى: كتاب حياتى ياعين.. ماشفت زيه كتاب.
قلت: وما توفيقى إلا بالله.

٩٧

وقف الشيخ فى وسط الدار. يتفحص. ينظر. يعاين. كان الأستاذ سيد وهو مفتش فى التربية والتعليم قد استحضره من قرية مجاورة فى سرية

تامة لكى يقول له عما إذا كان هناك آثار من عدمه فى باطن الارض المبنى عليها البيت المتهالك. طلب الشيخ ديك أفرق معوشر ليربط فى رقبته الخاتم السليمانى المكتوب بالزعفران ويطلق الديك فى الدار وأى مكان يقف الديك عليه ويبحثه برجله، أو منقاره ويصيح فوقه ففيه الكنز.

نظرت فى وجه الأستاذ سيد والزبيبة تملأ جبهته مستنكراً ولكنه أشار بالسكوت والامتثال للشيخ.

٩٨

كنت أصلى الجمعة فى مسجد الإمام الشافعى وبعد انتهاء الصلاة نهضت لزيارة الضريح. قرأت الفاتحة. دعوت الله. تمنيت أن تكون ساعة إجابة. اشتركت فى مقرأة. لم يألف الأخوة وجهى. قمت بتعريف نفسى لهم. قال الجالس عن يمينى أنا عضو مجلس إدارة المسجد. ذات يوم ونحن نفتح صندوق النذور وجدنا خطابا من شخص من محافظة الشرقية إلى الإمام الشافعى يطلب فيه عقد جلسة شريفة يحضرها سيدنا الحسن وسيدنا الحسين والست زينب أم هاشم وذلك لطرد إسرائيل من أرض العرب وتحرير بيت المقدس.

اندهشت لكلامه، ثم ذهبت الدهشة حين تذكرت أنه عندما وردت الأخبار إلى القاهرة بأن نابليون أحتل الإسكندرية ودمنهور وهو فى طريقه إلى القاهرة اجتمع الناس بالجامع الأزهر يقرأون البخارى ويعقدون حلقات الذكر ويرددون يالطيف يالطيف.

٩٩

صديقى القاضى فوجئت أنه يتصل بى. بعد السؤال عن الصحة والأحوال. اتفقنا نتقابل، وكان حديث ذو شجون. قال بصوت خافت:

بموجب التعديل الأخير لقانون السلطة القضائية لأول مرة فى تاريخ مصر سوف يختار رئيس الجمهورية القضاة المنوط بهم محاكمة رئيس الجمهورية إذا كان هناك موجب لذلك.

ثم اشتكى من غلاء الأسعار قائلا :

أنا مرتبى٢٢ ألف جنية.. كم يأخذ الأخ عامر رئيس البنك المركزى. لماذا لا آخذ مثل؟. وتطرق الحديث عن الجمعية العمومية لنادى القضاة والمعوقات التى يتم وضعها لعدم انعقادها.

طلب يشرب ينسون.. وهو ينصرف قال: لدى حكم ضد شخص نصب عليا فى قطعة أرض كلما سألت عن تنفيذه قيل لى لقد نزلنا للقبض عليه ولم نجده.الشرطة غير الأول خالص!!

١٠٠

عندما قال لى الدكتور زكى أنه يتعالج من معاناته من أنه نسى أن يحب وأن يتزوج حتى فوجئ بخروجه على المعاش وأنه يريد تدارك مافاته، فلجأ إلى جلسات يومية لدى شخص قال له إنه يعالجه بعلم السيميا وإن هذا العلم أفضل من العلوم النووية وبه تحمل العاقر وتشفى الأمراض ويطرد الجن، وتستحضر الملائكة وتقضى الحاجات. قلت له كيف؟ قال الرجل يقرأ بعض كلمات غير مفهومة وغالبا هى كلمات سريانية ويقرأ آيات من القرآن ويطلق البخور ويطلب أن أردد بعض الكلمات فى أوقات

معينـــة. وعندما أذهب إليه فى اليـــوم التإلى يقول لى انت فعلت كذا وكذا بالأمس وأجد ما قاله صحيحا فآمنت بطريقته وحرصت على المواظبة على الحضور لدية يوميا وتنفيذ كل أوامره وطلباته، والآن هو يستخدم الخاتم الســليمانى بمهارة فائقة وشعرت بتحســن حتى انى أقف فى البلكونه وانظر طويلا لبنت الجيران ولكن المشــكلة فرق الســن. فقلت ضاحكا بين ترامب وزوجته٢٤عاما وزوجة ماكرون تكبره ب٢٤عاما. ! !

١٠١

دلفت إلى باب اللوق واشــتريت ثمن قهوة ســوبر تحويجة عالية من عبد المعبود ثم جلســت فى مقهى قيل أن الجبرتــى كان يجلس به ودار حديث عن أحوال البلد مع أصحابى. أحتســيت فنجان القهوة المحوجة وبــدلاً من أن يزيــد انتباهى وتذهب حالة الخمول بســبب حرارة الجو وجدتنــى رحت فى إغفــاءة وحضر الجبرتى وقال كانــت أعمال العنف ســائدة فى البــلاد وفى صباح ٢ مارس ســنة ١٨١١ ذهــب ٤٠٠ مملوكا بكامل ملابســهم الرسمية إلى ســراى القلعة بدعوة من محمد على باشــا لإحتساء القهوة إحتفالاً بخروج ابنه طوسون باشا لمقابلة الوهابيين بشبه الجزيرة العربية. وأضاف الجبرتى: ختم الله للجميع بالخير. فقد بلغنى ممن عاينهــم بالحبوس أنهم حال قتلهم كانوا يقــرأون القرآن وينطقون بالشهادتين وبعضهم طلب ماء وتوضأ وصلى ركعتين قبل أن يرمى عنقه.

تنبهت وأنا أضحك لقوله ختم الله للجميع بالخير.

وكانــت نشــرة الأخبار فى تلفزيــون المقهى تقــول تم تخفيف حكم الإعدام على بديع ليكون أشغال شاقة مؤبدة فيما يعرف بقضية رابعة.

١٠٢

قال المعلم: لست بخيلاً أنا فقط أعانى من إمساك مزمن.

قال المثقف: ليس لدينا وقت للاستمتاع بما هو متاح لنا الكتب الصور السفر الحب الغناء الاحلام.

قال الصبى: يامسهل !

لم أصدقه.

١٠٣

قال المعلم: أشعر بالراحة فقد نسيت كل شئ.

قال المثقف: فقدان الذاكرة حيلة تستخدم دون وعى للهروب من المواقف المؤلمة.

قال الصبى: موقف عبود ؟!!

قلت: عايدة!!

١٠٤

قال المثقف: ليس كل من يعيشون حولنا يعيشون معنا. أرى منهم من يعيش فى القرون الوسطى بأسلوب حياته وطريقة تفكيره. ومنهم من يعيش فى الجاهلية.

قال المعلم: يعنى كافر؟!

قال الصبى: كافر بالحضارة.

قلت: شاطر.

١٠٥

﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

قـال المعلم: من الغريـب فى البلد بيفحروا تحـت بيوتهم بحثا عن الاثار وبيسـتعينوا بنوع من الدجالين بيستخدم القرآن والبخور والزئبق فى أعماله.

قـال المثقف: صديقى الدكتور زكى بعد ماطلـع على المعاش وانتابته أمـراض الوحدة والشـيخوخة بيتعالج عند واحد منهم وسـألنى من أين يشترى الملح الخشن وكنسة العطار وكانوا قد قالوا له أن جنية مخاوياه.

قال الصبى: ربنا يجعل كلامنا خفيف عليهم. غير الموضوع يامعلم!

قلت: يارب.

١٠٦

قال المعلم: خطيـب الجمعة أرجع ما نحن فيه من بلاء إلى بعدنا عن الدين.

قـال المثقف: والحكومة أرجعته إلى عدم اقبالنا على العمل والجلوس فى الكافيهات.

قال الصبى: فى كل الأحوال إحنا الغلطانين وهما تمام.. ربنا ياخدنا عشان يرتاحوا ! !

قلت: يا رب.

١٠٧

...وأما قاضى الغرام. فعاشق سابق. قد يأتيه من يسأله حلا لمشكله مع الحبيب فيتأثر القاضى لمأساته. ولايجد حلا، بل يشاركه البكاء.

راحوا لقاضى الغرام الاتنين سوا يشكو. بكو التلاته وقالوا حبنا راح فين.؟؟!!

لأروح لحبيبى لحد الدار أنا وحدى واطلع الطريق وامشى فى دارهم وحدى يوم ما صادنى الهوا، كنت أنا وحدى.

١٠٨

مكان فى العراء. رعد وبرق. تدخل ساحرات ثلاث. كان هذا هو المشهد الأول من مسرحية مكبث لشكسبير. الذى ينتهى بعبارة (الجميل هو الدميم).

رفعت فنجان قهوتى إلى فمى وداعبنى هواء مروحة فى حجرتى المغلقة. جلت ببصرى فى انحاء المكان حيث الكتب واللوحات الفنية المعلقة. قلت لمن نكتب. كان شكسبير يكتب لتعرض مسرحياته فى البلاط، لذلك تناول حياة الملوك وخيانات القصور. كنت قد انتهيت لتوى من أقصوصة لامرأة مطحونة تعتقد أنها محملة بعفريت من الجن تريد أن تتخلص منه من خلال حفلة زار ذات الموسيقى الصاخبة العنيفة التى تشبه موسيقى الجاز. الجميل هو الدميم.!!

١٠٩

– شى لله يا أسيادى.. ربنا يجعل كلامى خفيف عليكم.

ودخلت الست زكية وهى رعاعة من الرعاع مقام سيدها الكبير قوى صاحب الكرامات والفتوحات فى البر والبحر والسماوات وبنزينة وطنية.. أمسكت بالمقصورة النحاسية ذات الأضواء البهية.. التى تعلوها عمة خضراء.. وفوق العمة قبة يتدلى منها نجفة عملاقة بها ألف مصباح..

وقالت يارب سـايقة عليك حبيبك النبى تنقذنى من هذه الأيام السـوداء والغلاء والبلاء والتحرشـات الجنسية فى القنوات الفضائية والمترو وشر حاسـد إذا حسد.. ولم تكمل المناجاة. شـدتها الكودية قائلة لها: بطلى كهن النسـوان. تعالى لما أبخرك. أدفعى. الشيخ مستعجل. ودفعتها وسط البخور وجموع من النسـاء والرجال وبدأت دقـة الزار وتمايلوا ورقصوا وتشـنجوا وتضاربوا حتى تخرج العفاريت أو الأسـياد المتلبسـين بهم. كانـت الكودية تغنـى ماما يا ما ما فك الكروب يا مـا ما خللى بالك من الرعاع يا ما ما....دستور يا أسيادى.

١١٠

قال: مارأيك فى الرجل ؟!

قلت: يسـئ الظن بالآخرين ويبحث وراء كل فعل حسن لكى يعثر له على تفسير سئ..!

قال: هذا حال الكثيرين على الفيسبوك.

قلت: أحياناً تكون حرية الكلام مهلكة مثل تقييده !

١١١

الدور عليك. قـال القاضى لزميله. فى حجـرة المداولة. جزع الرجل وارتعـدت فرائصه. لملم قضاياه المبعثرة على الطاولة. وضعها فى حقيبته السـوداء ذات الجلد الطبيعى. قال بارتباك: انت تعرف ظروفى أرجوك لا تهمل متابعتى يا سـلامة بـك. كان التلفزيون الذى يتوسـط الحجرة يحكى كيف أن الشيخ الشعراوى كان يتغلب على ما قد يتسرب إلى نفسه

مــن التعالى على الآخرين نتيجة نجاحه فى الحياة بأن يعمد إلى تنظيف المراحيض الخاصة بالمسجد بنفسه.

قاطعه زميله: أعرف أعرف ياعادل بك.

ســوف يقوم عادل بدور متســول فى مكان قريب من قســم الشــرطة ويغريهم بالقبض علية. ويدخل زنزانة لا تتسع لثلاثة أشخاص ينحشر فيها خمسة عشــر. ويســتقل عربة ترحيلات لاتصلح لنقل الحيوانات. ضرب على القفا. إتاوات. رشاوى. وقوف أمام حجرة المحقق بالساعات. المحقــق لايحقــق ولكن يســأل ويجيب بنفســه. يد الســجان الغليظة. الكلابشات. حبس احتياطى. كفالات باهظة. عالم مجنون بالظلم فى دار العدالة.

قال ســلامة بك: تفضل ياعــادل بك أجلس على المنصــة واحكم بين الناس.

١١٢

عندمــا طلب الصيدلى منها ١٣٥ جنيها ثمنا لعلبة دواء الســكر الذى تعانى منه منذ عدة ســنوات. دفعت صاغرة. وفى الطريق تذكرت ســنية أنها ســنة ١٩٧٤ باعت أرض مساحتها اربعة قراريط كانت ورثتهم عن والدها بمبلغ ٩٦ جنيها وعرفت ان من اشــتراهم قد باعهم أمس بمليون جنيــه. ضحكت وقالت ومالو.. أنا اشــتريت وقتها ثــلاث كنبات بلدى بتنجيدهم وعملت مندرة كانت كل البلد تتحاكى عنها.. كنت أجلس بها وحولى وجهاء القرية. الفخامة. كان دائما يقول لى ياشيخة العرب. كانت تسكرنى نظرته. الله يرحم حبيبى.!

١١٣

باع لى بطيخة وقال لى بالهنا والشفا. لما وصلت البيت وكسرتها. قلت حسبى الله ونعم الوكيل.!

١١٤

كانت الفرقة تتأهب لعزف السيمفونية التاسعة لبيتهوفن. أحتشد الجمهور داخل القاعة الفخمة. حركة غير عادية تدور خلف الكواليس. أصوات ضبط الألات. انقطع التكييف فجأة. تصبب الجمهور عرقا. ذهبت رائحة البرفانات غالية الثمن إلى الجحيم. عاد التكييف. رائحة البرفان ضلت طريق العودة. مذيع يقول سيداتى سادتى. ينقطع صوته. تناهى إلى سمعى أن الفرقة الناجية سيطرت على المسرح. خرج صوت. معزوفة من يسار المسرح. ردت معزوفة أكثر عنفاً من يمين المسرح. اقتحمت المسرح معزوفة صاخبة بعنوان تعويم الجنيه. يصاحبها تابلوه راقص يخلع أعضاءه ملابسهم ويبيعونها فى مقابل الطعام. انتشرت الفوضى فى القاعة التاريخية الفخمة. الجمهور يغنى ظلموه. عبدالحليم حافظ يقود الجماهير نحو باب الخروج. أحلف بسماها وبترابها. كانت التذكرة لاتزال فى جيبى. دوى صوت انفجار. تناثرت الجثامين. سيارات الإسعاف. الدم. كان الشيخ فى صحبة القسيس. وأد الفتنة. لحقت بأتوبيس كان قريباً من دار الأوبرا. عدت إلى البيت. أغلقت الباب خلفى جيداً. جلست أمام القنوات الفضائية أتابع نقلها للحادث. الخبير الاستراتيجى يقول بأشياء لم تحدث بتاتاً وتحليلات بعيدة عن الواقع. أصدقائى على الفيسبوك اشتركوا مع الفضائيات فى التعليقات السطحية.

شــريط الأخبار: لم تعزف الســيمفونية لعدم وجود قائد. شــعرت انى رجعت إلى القاعة الجهنمية مرة أخرى.!

١١٥

قــال صديقى لا تقل أحب العدل. نظرت إليه مندهشــاً. واصل حديثه قائلا: أصبحت هذه الكلمة غامضة ويســتخدمها الظالم والمســتبد بكثرة لتبريــر أفعاله..فهم يقولون مثلاً العدل أســاس الملك فى الوقت الذى هم يمارسون الظلم فيه على نطاق واسع.. قل أحب عدالة توزيع الثروة. أحب عدالة التأمين الصحى الشــامل. عدالة توزيع أراضى الدولة. عدالة توزيع الوظائــف القضائية. ضعها فى موقف. لكى نســتطيع أن نراقب ونحكم زفلطة الكلمة ومطاطيتها.

قلت العدل اسم من أسماء الله الحسنى.

قال هذا شئ آخر.

١١٦

وقف وســط المقابر. تمتم بكلمات. أشعل ســيجارة. فعل كما يقول له الطبيب: خذ نفسا عميقا أحبسه طلعه.

قال: لقد ماتوا وتطهروا من خطيئة الحياة.!

١١٧

حارة تك. والتك اختصار تكنولوجيا. زبال حارة التكنولوجيا كل يوم يشــيل أجهزة ومعدات وحاجات ويرميها فــى مقلب كبير. أنا فى عصر

جديدة يصبح قديمه فى مدة بسيطة. تلفونى المحمول ما أكاد أشترى جهازا جديدا حتى يظهر طرازا أكثر جدة فيحرق القديم. وأجد نفسى أمام فاترينة التميمى أو فى شارع شريف لشراء تلفون محمول يتمتع بخصائص وإمكانيات جديدة. تعبت من ملاحقة الجديد. ولكن الاطفال سعداء. بعصرهم. ناديت على طفلتى. أتوكؤ عليها. لكى أساير هذا العصر المجنون. كان عقلى لايزال يفكر. فى وسط الدار.طشوت الغسيل. النساء حول الطشوت. ادعكى يا رسمية الياقات والأساور. لا أدرى لماذا كان اسمها رسمية؟ تلك المرأة التى لاعمل لها إلا أن تكون غسالة ،وتمشى آخر اليوم أصابعها متورمة. ادعكى يا رسمية. كمان فم يا رسمية. فى يوم الغسيل يتذمر رجال الدار. النساء مشغولات عنهم بالغسيل. فلا طبيخ ولا دلع. رسمية فى نهاية اليوم الشقى تقوم بنشر الغسيل وتقبل يد ستها التى تمد يدها وتعطيها اللى فيه النصيب.

١١٨

نجحوا يخلونى ريبوت. ويخلوا الريبوت إنسان. ويحطوا فى جسمى شرايح. دعامات. عدسات.الوان. آه. يا له من قرن. العشرون. تحت الجميزة. ربط صديقى حماره. وعلى الركية عمل زردة شاى. حبر أسود. حلاه بعشرين ملعقة سكر. ومن علبة الدخان. ربع أوقيه. لف السيجارة. بورقة بفرة بللها بشفايفه. رائحة عود الكبريت وهو يتولع. ومع دخان أول نفس. قال. كتبت قصيدة شعر.لكن كتير من الناس لن يفهمها. إنها تنتمى لشعر ما بعد الحداثة. المابعديات. يانهارى. انت ياشلبى. حتى

انــت يابروتــس. اسمعها. واحكم. أصل الحداثة نجاســة. ما أحلى عود الجلوين. والمش حارسه دوده. واروح من حبك فين. ياطالع النخلة. هات لى معك فون.

كان شلبى وقع فى غرام الشبكة العنكبوتية. وكعبلته خيوطها. شغال ليل ونهار ســيرش. كيف تكتب الشعر ما بعد الحداثى. كتب قصيدتة. أثنــاء قراءته لها سمع نهيق الحمار، قام يحط له العليق، ورجع يكمل. قراءة القصيدة. لما بعد. حداثية !

ووجدت نفســى أغادر المكان وأسير عبر الزمان. مدهامتان. الرحمن. خلق الإنسان.

١١٩

قاعد على الشط أغسل همومى. قدامى بحر هايج. بصيت لفوق. طيارة ورق. قلب يرفرف. ريحة الحبايب. ياشمس ياشموسة. الخيمة الزرقاء والنتف البيضاء. كان الطفل يلعب بالخيط. يشد ويرخى. كنت أنظر اليه فوجدته أنا. انت اشتريت طيارتك جاهزة تسليم مفتاح. أنا كنت أشترى من الــدكان الذى فى الســويقة جلاد أحمر وأزرق وأصفــر وخيط وأصنع الطائرة وذيل الطائرة. مع مشهد إطلاق الطائرة، كان قلبى فوق فوق. مش شايف غير حب وشوق. شعر يهفهف وعيون تضحك. بس ياابنى الكلام ده كان من خمســين سنة. انت لســة بتلعب نفس اللعبة، لكن بتشترى الطيارة تســليم مفتاح. ! أنا حلم وراح. انت بكرة. ياولد. شد حيلك. يا. ولد. !

١٢٠

إن هـى إلا حياتكم. التـى اخترتموها. ورقصتـم. وغنيتم. وثملتم. للفوز. بها. بكم. بهم. طائر أسـود كبير يحلق فى ليل شـارعنا. سيارة ميكروباص تأتى مسـرعة من الاتجاه العكسى للطريق. ينزل منها ثلاثة أفراد فى زى مدنى. المسدسات معلقة فى أحزمة بناطيلهم أو بنطلوناتهم أو سراويلهم. تعلو وجوههم جهمة. وتصرفاتهم غلظة.مباحث. اعترضوا طريق ثلاثة من الشـباب الذى كان يعبر الطريق. اوسعوهم تفتيشا دقيقا. مهينا فى عرض الشارع. كانت مدام مارسيل صاحبة السينما التى تتوسط شـارع عماد الدين تمر بالصدفة. أوقفت سـيارتها الفورد. وشـرعت فى الرقص بمايوه بكينى. الطائر الأسود يرفرف بجناحية. أثار غبارا. ثمة رجـل يخرج من البـار ذو الباب الفولاذى. فى يده كأس من الويسـكى. أين العسكرى الإنجليزى؟ غارة. منشورات. الرجل ذو اللحية يمسك به من رأسـة ويذبحه. يمسـح مديته فى طرف جلبابه. ينظر لمارسيل التى لازالت ترقص. كنت قد ركنت سيارتى بعد جهد جهيد فى شوارع وسط البلد الجهنمية. لقد كان من المسـتحيل.رغم الاعتقالات. أحكام الإدانة. السـجون المكتظة. ذات الرائحـة النتنة. أن أصـدق. أن أقرر. الإخوان. الإرهاب. ماهى. ماهما. إلا خرافة !!

١٢١

نظرى على قدى وإيدى طرشا. نظرت إلى صاحب العبارة الذى دخل توا إلى المقهى. بينما كنت مسـتغرقا فى الاستمساك بأحلامى حسب نصيحة

خبير نفسى وليس استراتيجى. حاول أن تتذكر أحلامك. أحلام الليلة الماضية. أحلام حياتك. لم يحدد. اعتبرت أنه يقصد أحلام الليلة الفائتة. كانت امرأة ليست رائعة وغير دميمة. كنت أرى منها عيونها الواسعة وعقلها. هل تطاردنى فى أحلامى ؟ أحاول أن أتذكر مناسبة وجودها معى فى الحلم. كانت هناك مشاحنات مع آخرين.كنت أجدها بجوارى أشاور لها وتشير على. وعند بداية طريق جديد واسع خإلى من المارة. اختفت. الرجل الداخل على مجلسى فى المقهى. تبين انه عجوز.نحيل. يتوكؤ على عصا رخيصة. لحيته بيضاء. نظرت فى وجهة. توقعت أن يكون خارجا لتوه من مرض ألمّ به. لكنه يطلق تحذيرات قوية. بصوت مخيف. وجدت الجميع يخشونه. ويعملون له ألف حساب. حتى المعلم صاحب المقهى انحنى أمامه وقبّل يده !؟

١٢٢

الأرز باللبن شئ رائع حقا. وجدت ورقة مكتوب عليها العبارة السابقة فى يدها وأيضا صورة شخصية لها تقبض عليهما أصابعها بشدة. كانت قد سقطت لتوها فى عرض الشارع. توقفت السيارات المارقة. أ×خذتها بمساعدة آخر إلى الرصيف. مغما عليها. اكتملت الحلقة حولها من الفضوليين. كادوا أن يمنعوا الهواء عنها. حاولنا إفاقتها. أثناء ذلك اكتشفت أننا تقابلنا ولكن لا أتذكر أين ومتى ولماذا ؟ بعد محاولات ووقت وجهد فتحت عينيها. ونظرت نحوى. قالت. ازيك. وأغلقت عينها مرة أخرى. محاولات الإفاقة بدأت من جديد. فتحت يدها المقبوضة على الورقة والصورة. استخلصتهما منها. فمها يفتح ويغلق كفم سمكة

خرجت من الماء حالا. تطلعت إلى الفم أن ينطق. أخيراً قالت ألا تتذكرنى. يالقسوة النسيان. ميدان التحرير. آه. ذهبت إلى الاستوديو لاستلم صورتى. الرجل أعطانى هذه الصورة.قال انها صورتى. لكنها لواحدة أكبر منى بكثير. أليس كذلك. أنا أجمل من هذه. أليس كذلك. أقلعت عن التدخين. ولا أشاهد التوك شو. ولا أذهب إلى الحزب. ومذكراتى تتلخص فى هذه الجمله الوحيدة.الأرز باللبن شئ رائع حقا. !

١٢٣

تشابكت ايدينا. عشرون اصبعا. يتلامسون. تلك اللحظة. صانع الديناميت. صاحب الجائزة. نوبل. أيها الوغد. ألا يوجد جائزة لأكثر الناس قبلات. أو من وطئ جثة زوجته. أو من عاشر بهيمة. أنت أيها السفاح القديس. لدينا من يعبد الفتاوى القديمة. والشروح القديمة. مهما كانت بائسة أو سقيمة. أو ضعيفة أو ملفقة.من كتبها لم يعرف امرأة باريسية. لم يزر متحف اللوفر. لم يمش فى الشانزلزية.لم يسمع بيتهوفن. لم يشاهد بيكاسو. لم يقرأ سارتر. سارتر رفض جائزة نوبل. لم تسمح له قيمه الأخلاقية.

عشرون اصبعا. يتلامسون. يتدفق العطر. يهون العمر. تنزل الملائكة. أوراق الورد تتحول إلى كتب عشقية. جلدتها خضراء. مكتوب عليها بماء الذهب. كتاب الحب لايمسه إلا المطهرون.

١٢٤

التقت الشمس بسطح البحر. ولدت جبال الفضة. ياقلوب يامفضضة. ميلى وارمى السلام. شيخنا. كلنا مريدون. نذوب فيك. وتذوبنا. ياسيدى

يابحـــر. العلوم. والمياه. والســمك. واللؤلؤ. ندق علـــى حوافك الخيام أو الشماسى. البيارق. كرة. طيارة ورق ملونة. فريسكا. فريسكا. المصوراتى العجوز لايزال يقطع الشاطئ ذهابا وإيابا. فى يده كاميرا من القرن الماضى بداخلها فيلم ٣٦ صورة. لا أحد ينادى عليه. لم يعد يقول اضحك الصورة تطلع حلوة. كل واحد على الشـاطئ معـــه الآن تليفون محمول به كاميرا ديجيتال تلتقط الاف الصور بدقه متناهية. اســتغنوا عن خدمات الرجل العجــوز. ولكنه مصمم علـــى أن يروح ويجئ على الشـاطئ طول النهار يبحث عن زبون لايجئ. بعد أن وصل إلى سن السبعين لايستطيع أن يغير مهنتـــه. إنه الدرويش فى مولد ســيدى البحر. أكبر مولـــد يقام كل عام ولمدة ثلاثة شـــهور. البحر شيخ المشـــايخ. كبير الأولياء. من جنود ربك. قال البحر مولد الحســين أسبوع وأنا مولدى ٣ شهور. الناس ينفقون فى مولدى بسخاء. خدامى كثيرون. الأطفال أحبابى. هللت. خلعت ملابسى. ارتميت.فى حضنه. اغسلنى ياسيدى. بالماء والثلج والبرد. أتيتك من آخر البلاد. أتوسل إلى من خلقك. تب علينا يا الله لنتوب.

١٢٥

الصخرة جروب. سوبر ماركت. درينكز. كافية. يوجد خدمة توصيل الطلبـــات للمنازل. هاتف. نورماندى تـــو. صرخ عبد الفتاح القصرى: أنا عميت. صفق جمهور المسرح. حسبها جملة فى المسرحية. جذبه أحدهم إلى الكواليس. كان الرجل الســتينى قد فقد بصـــره فعلا. تركته حبيبته العشرينية. ارتمت فى أحضان أحد صبيانه. أضيف إلى العمى الاكتئاب.

زمجر البحر. موجة عاتية. الغرق. سحرة جروب. فك العمل. حجاب. اضرب الودع. ابين زين. ديلفرى. موبايل. أخر أيام الصيفية ! !

١٢٦

حب العزيز الربعة بقرش. فى الصباح الباكر يلبس الرجل الخمسينى عمة خضراء وشال أبيض كبير ويغادر قريته. اليوم الحسين نادانى. فيركب إلى القاهرة. البدوى نادانى فيركب إلى طنطا. الدسوقى نادانى فيركب إلى دسوق. ويرجع فى جنح الظلام. وقد هده التعب وفى جعبته حب العزيز وحلاوة شعر. !

ويجلس على باب الجامع الكبير. ساعة العصارى. يحكى عن كرامات الأولياء.وعن كرامات العبد لله. الرجل الطيب. رائحة المسك. حب العزيز الربعة بقرش.

١٢٧

ثلاثة أدوية للضغط. كانت السيدة قد ورثت المرض عن زوجها الذى غادر البيت فجأة. وثلاثة أدوية للسكر. جلست فى حديقة المنزل. نظرت إلى الشجرة ذات الأوراق الخضراء والورود الحمراء. ترددت أمام دواء البروستاتا هل تتناوله ايضا. هنالك دعا زكريا ربه. الأسبرين ودواء السيولة وأحمر شفايف. اكتملت الدائرة. ثمة مثلثات ومربعات وخطوط متقاطعة. أين هو الآن. كان يبقظنى فى الصباح وفى يده كوب شاى باللبن. من المهم أن تأخذى الدواء فى مواعيده المقررة. البلوزة الصفراء تليق بك. القطة تتمسح بقدمى اليمنى. ثمة هواء صباحى بارد يداعب

وجهى. أخذت بطاقة دخول الشــاطئ. مستندة إلى عكازها. توجهت إلى البحر. غمست أقدامها فى الرمل. هنالك وجدته. يطرح صنارته فى الماء. ينتظر أن تغمز

١٢٨

بينما كنت اســتقل سيارة بدون ســائق. تسير بسرعة البرق. فوجئت فى منتصف الطريق الصحراوى بشــبورة كثيفــة تحجب الرؤية. نظرت إلى مكان الســائق الخالى. طلبــت أن يوقف الرحلة بعــض الوقت. لكنه لايستجيب أو لا يسمع أو لايرد أو غير موجود. الرؤية انعدمت. السيارة منطلقة بأقصى ســرعة. أدركت أنى هالك لامحالــة. فعال لما يريد. طالما الموت فهناك حســاب. يــا لها من خطايا. ذنوب. قلــت لو نجانى الله لن أعود لذنب أبدا.امتلأت الســيارة بوجوه أقــارب وأصدقاء قد ماتوا. قالوا الا تحبنــا. لماذا كلما اقترب الموت منــك أصابك الخوف والهلع. ألا تريد أن نجلس معا ونتســامر. ون واى تكت. أنت يمكن أن تأتى إلينا. ولكننا لانســتطيع أن نعود لدنياكم. الســيارة مســرعة. الوجوه تقفز من شباك السيارة واحد وراء الآخر. تركونى. وحيدا. أواجه. مصيرى.المحتوم.

١٢٩

زهور. موسيقى. شعر. حمام محشو بالفريك. ثم آيس كريم بالفانيليا والشــيكولاتة والمانجــو. أحمدك يارب. قعدت فــى كازينو الحمام. على النيل المنكســر العظيم. القمر نشــر على الكون فضته. وسحابات صغيرة تمــر عليــه. مناديل الحلــو. مناديل بيضــاء مثل ورق الفــل والياسمين.

وحكايات ناعمة. كلام العشـاق طويل. سكة العاشقين. ياليل طول شوية. يانسيم الليل. ارحم مريدك والرب يزيدك. ومالت الشجرة. قالت أشوفكم بكرة. أنتم والقمر. ضيوفى. ياشجرة ياواقفة فى المكان شاهدة. على حبنا. على صدقنا. على كذبنا. الحكاية بقت أكبر مننا. وقف الجرسـون بأدب جم. قدم بعد أن انحنى احتراما وإجلالا ونفاقا طبق به ورقة. الحسـاب يافنـدم. ادفع بالتى هى أحسـن. انحنى مرة أخرى. للامتنان والشـكر. البقشـيش مرضى له صاحب البدلة السـوداء. دائمـا يعطيك انحناءات وتشكرات. كلما جادت يدك بورق البنكنوت.قالت لا أريد أن أحضر لهذا المكان مرة أخرى. اندهشت متسألا. قالت نوفر فلوسنا وتجيب لى عوامة. مكان يلمنا. وكنت فى هذه اللحظة قد تقمصت شـخصية سـى السيد فى قصر الشـوق. وقلت لها ومالو يازنوبة. قالت واقلع الملاية اللف وتلبسنى الافرنكا. قلت ومالو يازنوبة. قالـت وتكتب العوامة باسمى.قلت ومالو يازنوبة. مسـكتها من يدها. دخلنا فيلم الكنز فى سينما صيفى مكشوفة. محمد سـعد عامـل دور يجنن. والا محى اسماعيـل. قالت يالهوى على أحمد رزق ! !البنت روبى. وضحكنا كطفلين !

١٣٠

الدار القديمة. لازلت أذكر تحذيرات فى طفولتى من العفاريت والجن فى دار العيلة أو الدار القديمة. هجرها أهلها. تهادمت. أصبحت أطلال. سـكنتها الأشـباح. إذا جاء المسـاء أسمع حركة مريبة. ما يشبه الرعد. البـرق. صفير الرياح. كانت ملاصقة للدار التى أعيش فيها. بعد الغروب لا أجـرؤ على النظـر ناحيتها. عرفت من الخادمة العجوز. أن الأسـياد

تسكنها. وأن لا سبيل إلى دخولها أو العيش فيها بعد ان حدث فيها ماحدث. إلا امرأة من الغابرين. خاوت الجن. تقيم فى القاعة البحرية. بين صوامع الغلال الخاوية وأطلال الفرن الذى كانت عرصته تسع عدد من الصوانى وابرمة الأرز المعمر.وبجواره أحمال من الحطب والقش. كم أكل الفرن من الوقود. وكم أكل أصحابه منه مالذ وطاب. قيل أن الرجل فى هذا البيت كان طوله ستة أمتار. والمرأة تزن ألف كيلو. وأن وجبة الغداء عجل حنيذ. وقفت عند ماجيك وفى يدى كأس الفروت صالات بالايس كريم. أمام قصر الاتحادية. وكنت خرجت لتوى من دار السينما ولايزال طعم الفيلم فى فمى. تذكرت مرسى. قلت لها هل تذكرين. هنا وقفنا نهتف يسقط يسقط حكم المرشد. !

١٣١

حجرة السلاحليك تعج بالبنادق القديمة. لا اراه الا اذاحضر لتسليم سلاحه. أو استلامه. شاهدت بعض العمائم فى حجرة السلاح. عبارة مكتوبة بخط ردئ. هذا السلاح قتل من الاشقاء أكثر مما قتل من الأعداء. خفير الدرك لايدرك. أن من يحاربهم يركبون سيارات دفع رباعى. يحملون أسلحة أوتوماتيكية سريعة الطلقات. كان الدم غزيرا على الأسفلت. هاجموا الكمين. قتلوا خفير الدرك. لن أراه وقت تسليم واستلام السلاح كما تعودت.ستعود البندقية القديمة إلى السلاحليك وحدها. نفس البندقية يتسلمها آخر سيتم تعيينه. وقد يدفع رشوة من أجل أن يقع الاختيار عليه. حاولت أن أكون متفائلا. كيف أكون متفائلا. هل أكتب انتصر خفير الدرك الذى يحمل بندقية قديمة يعلوها

الصدأ. وكبّد الإرهابيين خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات. هل أكتب لقد طاردهم إلى ما وراء السد العالى. حتى الحدود مع السودان. الآن وطبقا للتوجيهات. انتصر السيد الخفير.

١٣٢

عندما سقط فى الشارع فجأة. حاولت مساعدته. اتشوق لكلمة تخرج من فمه.كلب. ثم صمت. خروب كلية الطب. ثم صمت. انجاز لضابط المباحث. ثم صمت. الكلاب تحرس. ثم صمت. نحن نخون. ثم مات.

غطيناه بورق الجرائد. جاء الضابط. نظر فى وجهه. حسنا فعل. حلقة عزاء. قريبا من الجثة. قالت السيدة البدينة. المدينة تتحدث عن الكلب الذى استورده المحافظ. وسرقة ساعى البريد. وأعلنت الشرطة عملية ضبطه ضمن انجازاتها.

قال الرجل القصير ذو النظارة السميكة العلاقة بين الخروب وكلية الطب لاتختلف عن علاقة الدول العربية بالديمقراطية.

وقفنا صفا.. أمام ابن المتوفى. شهيد الجو العام. نحتضنه. نقبله. نطبطب. نعزى. ننهنه. ثم تفرقنا. نضحك. نقهقة. نثرثر. نطلق النكات. والقفشات.

١٣٣

اشتدت البنية التحتية التآمرية. وترى الناس سكارى وما هم بسكارى. ويذبحون وهم فى الواقع مذبوحون. قال أزهى عصور الدجل. الفرقة التى ظنت أنها ناجية. تلعب بالسيوف والميكرفونات. اشم رائحة

الدم. تصدم عينى الرؤوس المقطوعة. الصلوات تملأ الشوارع. الكتب الدينية تملأ الأرصفة. والجلابيب البيضاء. كنا نتهامس فى الجنازات. قالت ياولدى لاتحزن. الحب عليك هو المكتوب ياولدى. ضربتها بالقلم فى تصرف بربرى صدر بتلقائية مدهشة. يا ولية اتلمى !

١٣٤

غيض الماء. لم أستطع الوصول إلى الماء فى بطن الزير بالكوز. ليس أمامى سوى الماء النقط فى الأسفل. ولكنه وسخ كالنفط.البط لغ فيه..رغم أن هناك طرمبة فى حوش المنزل. لكن لايزال عم محمد السقا يأتى كل صباح يحمل صفيحتى المياه كل واحدة معلقة فى طرف نبوت يرتكز منتصفه على كتفه. ماء الطرمبة اسمه ماء معين وماء السقا اسمه ماء سوارى. ممنوع عمل الشاى من الماء المعين. تحذيرات كثيرة حول هذا الماء الذى يأتى من وادى العفاريت.قيلت أساطير عن يوم دق الطرمبة. ماء الشرب والشاى يصبه عم محمد كل صباح من صفيحتيه فى الزير. وفى آخر النهار يكون هذا الماء صعب المنال على طفل مثلى.

١٣٥

وجد نفسه وقد مر الزمن. ثلاثون عاما يقدم مشروبا أسودا يعتقد أنه شاى. من الثالثة إلى الثالثة. يروح ويجئ فى يده صينية عليها أكواب. مليئة بالسائل الأسود أو فارغة منه. فى العاشرة مساء يرقب الرجل الكبير السمين الذى يجلس ويعد الفلوس. ويربطها بالأستك ويضعها فى جيبه وينصرف. يأتى الثالثة عصرا فى غاية النشاط. مشوار يومى لمدة ٣٠

سنة. لا أجازات. لاراحة. وكيف يرتاح وهو يخاف أن يأخذ آخر مكانه فـى المقهى. نظرت إليه. أقدام كبـيرة وأذرع كبيرة. رأس صغير على قد المشاوير والزبائن.ينصرف فى الثالثة صباحا.

١٣٦

الشوارع. الدكاكين. القهاوى. باعة الجرائد لايزالون يصحون مبكرا. يحصون كل شـئ يحدث فى الشارع. يشـتكون رذالة البلدية. يختارون شـخصية من سكان المنطقة يعتقدون أنها مهمة يحتمون بها. ناجى يأتى شـارعنا فى السادسـة صباحا كل يوم. يغادره بعد غروب الشـمس. يرد على بفتور تحية الصباح. لكنه ما إن يلمح سـيارة النائب «شوقى السيد» فأجـده قام منتفضا وعبارات الترحيـب والتحيات الحارة تخرج من فمه مثنى وثلاث ورباع. يبيع صحفه الباهته وكتبه التى لايقبل عليها أحدا. الان أمر عليه ولا ألقى عليه تحية الصباح أو المسـاء. يحملق فى وجهى. وأنا أقول فى نفسى. أبدا لن تنالها منى. أقف أمام محل الموبايلات أشحن الباقة. أدخل مختارا شبكة العنكبوت الاليكترونى. استغنى عن صحف ناجى. عش حياتك مع الفيسبوك وجوجل. دعك من ناجى وأمه.!

١٣٧

ميرامار. يابانسيوناتك يااسـكندرية. أكلة سمك على البحر. فنجان قهوة فـى محطة الرمل. ماأحلى هذه الشـوارع التى ينتهى رأسـها إلى البحر.وتتمدد فى قاع المدينة. من سـيصل إلى الجندى المجهول. قضيت وقتا رائعا. أشدها من يدها وتشدنى من يدى. نحملق فى الفتارين. نشاهد

صورنا المعكوسة على مرايا المحلات. نشاهد المودة والأسعار. ونشترى الايس كريم والفشار. افيش السينما. لم يعد هناك أبطال. نمنى أنفسنا بجلسة مع الهواء المكيف أمام شاشة كبيرة وأصابعنا متشابكة. الموجة العالية ترسل رزازا يهبط على وجهينا. أخذتها إلى صخرة على البحر. أعطينا ظهرنا لكل ماعداه. جلسنا نحدثه. هو يهدر ويزمجر. يرغى ويزبد. يعد ويتوعد. خرج طائر البحر بألوانه الرمادية. وحملنا على جناحيه. وطار.

١٣٨

السمان والرغيف. هرعت إلى اسكندريتى لارتاح بين ذراعيها كما كان يفعل أجدادى. تحدت الزمن. ملكة العشق المستدام. تحول البحر إلى نبيذ احمر. والهواء إلى ورود. أهدتنى عقدا من الياسمين. بدد عطرها الكوابيس التى كانت تسكننى. هتفت بالأسماء الحسنى للعشق. على صخرة الشاطئ جلسنا. انغمست قدمى فى ماء البحر. حبات اللؤلؤ أتتنى طائعة. حكت لى ما جرى. مسكنا الخريطة.محوت بيدى محطة القطار والميناء والمطار. أنا معكى طوال العام.

١٣٩

قبض على عوده. شد الوتر. عزف صول فا مى رى. حول الموائد تراصوا. رائحة اللحم أخفت صوت الموسيقى. كنا نتهامس. أعطتنى وردة حمراء. اقتربنا. زادت رائحة الشواء. لغط الموائد الأخرى كان صاخبا. قلت بصوت عال نسبيا أحبك. العازف المسكين خرج من الرصد إلى البياتى

إلى الصبا ولم يشــعر به أحد. وقف منحنيــا يحتضن العود. صفقوا. لأنه أنهى فقرته. الراقصة. أين الراقصة ؟ رائحة اللحم. تدوى

١٤٠

تســاقطت الزهور فوقنا. تداخلت الألحــان. كان عطرها يأخذنى إلى أماكن بعيدة. أدمنت الشــم. عشــقت الأدمان. مثل الطيور نغرد بلا أمل. حين هطل المطر آوينا إلى مبنى عتيق. احتسيت قهوتها الساخنة. لم تكن النجوم تلمع. سمعت حوارا بين طائرين على شــجرة فى حديقة المنزل. قالت تجئ من آخر البلاد لتمرح فى حضنى. كان المساء يتحدث لغة غير مفهومــة. وثمة حركة مريبة خلف الشــجرة. قطة تموء. تتلوى. تتأوه. ولدت عددا من الصغار. داعبنا الأطفال. ضحكنا.

١٤١

من خمسين سنة. إعلان. ســافر من القاهرة إلى الاسكندرية بطائرات شركتنا.سعر التذكرة ١١٠قرش. مدة الرحلة٥٠دقيقة. كل يوم ٣رحلات. أوراق صفراء طويتها متحسراً.

١٤٢

قال المعلم : للفقر فى مدينتنا وظيفة أساسية هى حماية نظام أغنيائها.
قال المثقف : لقد سلم زعماء المدينة فقراءها للأجهزة الأمنية.
قال الصبى : وطى صوتك ياحاج !
قلت: من خاف سلم.

١٤٣

موظف قلم الحفظ بمحكمة عابدين الساعة ١٠صباحا طلب ٢٠جنية رشوة. الساعة ١٢قام برفع آذان الظهر فى الطرقة وصلى بالناس إماما. سيجارة محشوة بالحشيش فى درج مكتبه. السبحة اليسر لاتفارق يده. خاتم بفص ألماظ. الزبيبة. المصحف على المكتب. دائما يبتسم ابتسامة الصالحين. لم ينجز لى طلبى. أخرنى حتى الساعة الثانية. حيث جاءت زوجته المحجبة تستعجله. العربية مركونة صف ثان.

١٤٤

قالت انت مهموم بالوطن. قلت فى مدينتى يدخل الناس السجون فيخرجون منها ملتحين. وبعضهم يذهب لما يسميه الجهاد. أهل مدينتى يتركون عدوهم الداعشى يستثمر فى فقرهم وفى أميتهم وحاجتهم لخدمة صحية وحق السكن. ويذهبون لبناء قصورهم فى الساحل الشمالى أو جنوب سيناء أو العاصمة الإدارية الجديدة. قالت هل تتهم أهل مدينتك بالغباء. قلت معاذ الله.

١٤٥

وقف فى الميدان. حوله جمع من البشر.يصرخ. أقسم بالله أنا مالاقى آكل. صدقونى. والله مالاقى آكل بجد.ازداد صراخه. انهمرت دموعه. تزاحموا حوله. قال أنا عرص. بس ألاقى آكل.

بلغة الفيس بوك الواقع فشخ الخيال.

كنت فى طريقى إلى دار القضاء العالى. الجو الكابوسى لفيلم الزوجة الثانية. ابو العلا.. كهن النسوان. سناء جميل وسعاد حسنى. الليلة ياعمدة. الجوع هو هو. الظلم هو هو.

دنيا وفيها كل شى. وكل من جاها مشى..!

١٤٦

قابلته. والأشواق فى عينيه. سلم. فى العرض الأول لفيلم خلى بالك من زوزو.لم يكن كثير من الشباب يملك رفاهية الحصول على تذكرة دخول السينما. هاجمه النقاد. واحتفى به الناس. وظل فى دور العرض لسنوات. أطلق اغنية ياواد ياتقيل. كنت فى بداية المرحلة الثانوية. اقرأ المنفلوطى. البلد فى مرحلة تتوسط هزيمة ٦٧وانتصار٧٣. وصلاح جاهين مع حسن الإمام يقدمون رقصة الست. سعاد حسنى. انحازت الجماهير إلى البهجة. ضربت بكلام النقاد عرض الحائط. المنفلوطى مستمر بكل قوة فى تلقينى دروسا فى الغزل العفيف. النظرات والعبرات. فى هذا الوقت كان النظام يتعقب من أسماهم بالشيوعيين. ويعد للمعركة. لم يكن هناك إرهاب باسم الإسلام. لم تكن معركة الحجاب قد بدأت. فمن نقلوها كانوا فى السعودية ولم يصلوا بعد. لم أسمع فى هذا الوقت عن شحن طائفى. ظلت كتب المنفلوطى تحاصرنى. عندما جاءتنى الفرصة لمشاهدة الفيلم. أصابنى الخجل من رقصات زوزو. وصبى العالمة شفيق جلال. لم أكن أعرف إنى أمام علامة مهمة فى تاريخ السينما المصرية.

١٤٧

فــى الصباح أجدهم بلا رؤوس يتزاحمون لشــراء سندوتشــات الفول والطعميــة. الأفواه الكبــيرة المركبة فوق الرقاب تبتلع الطعام بســرعة. تجــرى نحو محطة المترو. تتراص داخل العربــات. يتبادلون الحركات الخشــنة. المترو ينطلق بســرعة. وفى المحطة تنــزل مجموعة وتركب مجموعة أكبر مــن الأولى. لغط فى العربات المخصصة للســيدات. ناصر. الســادات. كانت المظاهرات حاشدة فى الميدان. منصة. خطيب. هليوكبتر تحوم فوق الرؤوس. هبطت أمام عمر مكرم. نزلت منها فرقة حســب الله بملابســها ونحاســياتها وطبولها. كله يغنى. كله يرقــص. كله يطبل.. أصابنى الصداع. ولكن تســمرت عيناى على منظر طائر كبير أسود. يطير فــى حركة كســولة. أخيرا تبينــت أنه صقر. أخفيــت وجهى فى كفى. وانفجرت فى البكاء...!

١٤٨

فى طريق العودة. بعد الغربة لسنوات. قابله احد اقاربه. فقال له ان والده قد مات.قال ملكت أمرى.ثم أخبره أن زوجته قد ماتت.قال جددت فراشــى. قال إن جميع أهله وجيرانه قد ماتوا. عندما وصل إلى الشارع ثم البيت. شــاهد والده. رأى زوجته. أهله كلهم يروحون ويجيئون أمامه. ولكنهم أموات. لم يجدوا قبرا. يقفون فى قائمة إنتظار كبيرة. أمام شباك حكومــى. لعل القرعــة تصيبهم. فيقبرون. يقضون الوقــت بدل الضائع.

بعــد حياة حافلة. المدرجات مكتظة. التصفيق على أشــده. الكرة اجوان. ومقابر!

١٤٩

كانت ضحكتها كالشلال الهادر. ويأخذنا الوقت حتى الصباح.ونصبح دون أن ينتهى الكلام. ويســتحيل الكلام إلى همس ولمس. وتفتحت ورود الحــب. ثم وقفنــا خلف الحائط نبكــى. وغابت. ثم عادت شمســا تنير ظلمــات حياتى.. عندما فتحت كتابى وجدت وردتها لم تذبل رغم مرور السنوات.!

١٥٠

ســائق الحافلة ينطلق بطريقة جنونية. اصفر وجه الرجل ذو الأنف المدبــب. أخرج من جيبه قرصا وابتلعه بســرعة.قد يكــون دواء للقلب. هممت أن أعترض على الســائق. حذرتنى امرأة محجبة وعملت اشــارة معناها أنه ضارب برشام. شممت رائحة تبول لا إرادى آتية من الكرسى الخلفــى الذى تجلــس عليه فتاة جامعية. كان الصبــى يضحك كلما عمل السائق غرزة أو سبق كل من على الطريق. المعتم. لانعرف أين يسير بنا. بسرعة رهيبة. الملتحى نطق بالشهادتين. الأغنية المنطلقة من الكاسيت. يحيا الحب. اقتربت الحافلة من موقع الكمين. اجتازتة بسرعة. سمعت صوت طلقات الرصاص الذى اســتقر فى العجلات. وصوبت المسدسات فى رأس الســائق. وضعوا الكلبشات فى يده وهو يصرخ : كنت عايز اوصلهم بسرعة واعمل فردة تانية.!

١٥١

أبحث عن نفسى فى مستشفى. حائر فى طرقاتها الكثيرة.أحاول أن أتذكر الحجرة التى أقيم فيها. فشلت تماما. كنت بين النوم واليقظة. هل كان جسدى فى حجرة من حجرات المستشفى وروحى هائمة فى الممرات تبحث عنه. أليست الروح شفافة ويمكنها أن تطير وتدخل من الشباك ولاتلتزم بما يلتزم به الجسد المركب به ذاكرة تنسى وتتذكر رقم الحجرة ومكانها.

خرجت. ركبت الحافلة المتجهة إلى حيث تقع حديقة الحيوان. صوت أحد الركاب علا فجأة وهو يتحدث فى هاتفه المحمول :

إن كلمتك متردیش علیها عشان إنتى مبتعرفیش تتكلمى.. فاهمة؟!!

نظرت إلى صاحب الصوت والكلام فوجدته رجل فى الأربعين. تتدلى من أذنيه سماعات وفى يده عدد من الهواتف المحمولة المعدة لاستعماله الشخصى.

كانت نظرات المرأة الريفية الجالسة فى الكرسى الخلفى قد تركزت على صاحب الصوت القمعى ذو السماعات والهواتف المحمولة فى يده.

الشاب الذى كان على يمينى رد على مكالمة :

-احنا ننتمى للتيار الديمقراطى لايمكننى ان أؤيد شخص فاشى.

تكهرب الجو داخل الحافلة. رفع الجميع هواتفهم إلى حيث تقع آذانهم. وشرعوا فى أحاديث بصوت عال. تداخلت الأصوات.

كان علىّ أن أغادر هذا الجحيم. ومعاودة البحث عن حجرتى فى المستشفى حيث يتلقى الجسد عدد كبير من الأدوية وقياسات للضغط والسكر والنبض ونسبة الأكسجين فى الدم.

١٥٢

منذ طفولتى كنت أسمع عبارة السلام القائم على العدل. فى نشرات الأخبار العربية. إذا تطرق الأمر إلى القضية الفلسطينية. كان الإعلام يدمن شرب الحشيش. ويبث المخدر فى أعصابى. أفقت على حقيقة أن العلاقات الدولية لاتبنى على العدل ولكن على المصالح والقوة. وعندما تدفق النهر. جرف الإعلام المتواطئ. وبقيت القضية !

١٥٣

كنت أتأمل الصوفى قبل نومى المتقطع. جاءتنى تقبلنى أمام الناس. حب قديم طفا فجأة على السطح. لمسة حانية تقطر عذوبة ودفء وتلقائية وطفولية. كانت طفلة. أما الصوفى فولد فى لندن وترعرع فى الرياض وأنهى تعليمه الجامعى فى سياتل بأمريكا. حام كالفراش حول نار القاهرة حتى سقط فى حبها. بعد أن بلغ الأربعين لايغادر القاهرة إلا مرة فى عيد الفطر وأخرى فى عيد الأضحى ليزور أمه فى الخرطوم. ألمحه على المقهى فى حارة الصوفى الواقعة بين شارعى عدلى وعبد الخالق ثروت يروى أحاديثه عن العشق. لايمل ولايكل. الخريطة العشقية لسهول وهضاب المحبة. كيف تحب بلدا أكثر من أهلها. أعوذ بالله أن أزايد عليكم. ولكنى أدّعى أنى أفهم هذه الروح بما بعد عن الكثيرين أن يفهموه. لقد اختصتنى حبيبتى بسر من أسرار الحب لن أبوح به لأحد ولو كان من أهلها.

١٥٤

على عتبات الحب المقدسة. تشابكت الأيدى. تعانقت العيون. الأفكار المختزنة فشلت فى عدم الظهور. كان بينهما كوب من الشاى وكوب من

عصير الليمون. منضدة. اتسعت حتى صارت فى حجم ترابيزة السفرة. هبوط اضطرارى للصمت. داخلها هبت عواصف ورياح وبرق ورعد. ترك الكرسى واحتضنها.. تقزمت المنضدة حتى صارت لاشئ. لاشئ على الإطلاق يستحق أن أغضبك ياصغيرتى.

١٥٥

اليوم أكملت لكم وردى. وأتممت عليكم محبتى. ورضيت أن تستعملوا عقولكم. رد أحدهم. نحن اتباعك يامولانا. قال من يحبنى لايتبعنى. تخبط الدراويش. زاغت أبصارهم. زلزلت الأرض زلزالها. كبر مقعد الشيخ. كأنه عرش. رأسه بحجم القمر. جسمه جبل. صوته جهير. اتبع النور الذى خلقه الله فى عقلك أولا. كنت فى آخر الصفوف. أتلقى النفحة. يد حانية مسحت على رأسى. خذ ياولد. نظرت فى حجرى. وجدتها. عسلية.

١٥٦

كلما مررت بجحرها. رأيتها. ترى الأشياء الصغيرة. تعجز عن رؤية الأشياء الكبيرة. كما لو كانت نملة. و دائما تسعى.!

١٥٧

الرجل المهيب. شد الحزام على وسطه. وضع قدمه فى الحلة. أسند يده إلى الحائط. تحرك كأنه يرقص. تويست. كان المشيب يكلل طلعته. عندما كنت أرقبه فى طفولتى. يقف على باب الدار. يتسلم الحلل وباقى الأوانى النحاسية. يقضى اليوم فى تبييضها. كنت طفلا خجولا أمام

الشيخ الراقص. أنظر إليه من بعيد. متواريا خلف شجرة. يرقص. ينفخ النار. يعيد دعك الحلل. ثم يسلمها آخر النهار. بيضاء من غير سوء.

١٥٨

فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. فى القطار إلى الاسكندرية. بصحبة الراديو. تداعت الأفكار. كل فكرة تظهر لثانية أو لجزء منها. ثم ترجع إلى الخلف.مثل الأشجار والحقول والمواشى التى يتجاوزها القطار المندفع بسرعة. فى مدرسة دسوق الثانوية. أحمد زويل كان يدرس هنا منذ عدة سنوات. قد يكون قد جلس على نفس التختة وفى ذات الفصل. الشيخ شعيشع يقرأ من بغداد النجم والقمر والتين. اقتربت الساعة وانشق القمر. محطة الضبعة٢٠١٧. مصر نورت بالكهرباء قبل دول أوروبا. شركة ليبون صاحبة الامتياز لخمسين سنة.١١-٥-١٨٩٥. عهد الخديوى إسماعيل. حصلت فى الثانوية العامة على مجموع كبير كان يؤهلنى لكلية الإعلام أو التجارة. لكنى اخترت كلية الحقوق. كنت أحب توفيق الحكيم. أول مشترك أدخل الكهرباء لمكتبة كان بالإسكندرية المحامى مانوزدى. فى مدخل محطة سيدى كرير توجد أول محطة أو مصنع لتوليد الكهرباء دخلت مصر فى القرن التاسع عشر. دخل القطار محطة سيدى جابر. والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الامين.

١٥٩

السلطة والفول النابت. فاهم الفولة. فولة وانقسمت نصين. كان يحبها حب عبادة. وقف فى يمناه ابرة الوابور وفى يسراه ورقة مولعة وانكب

على تسليك الثقب الصغير لوابور الجاز.ويعطيه نفس. خرجت النار تعلن عن نفسها. صهللة. ابتسم لمنظر اللهب وصوت الوابور. كله فى حبك يهون. اللقطة من خمسين سنة. صنع كوب الحلبة بالحليب وقدمه لها فى سريرها. كانت أتمت الأربعين بعد الولادة ولكن لم يغادرها الوهن. قالت روح ربنا يحبب فيك خلقه. ضعف صوتها شيئا فشيئا. وتلاشت. قال هبل فى الجبل. أشار إلى سحابة بيضاء. نزلت. ركبها. قال. على بلد المحبوب ودينى.

١٦٠

مراهقة تأخرت كثيرا. لم أكن أعشق نجمات السينما فى شبابى المبكر. ولم أضع صورة لواحدة منهن على جدار حجرتى كما يفعل أصحابى. لكنى أمس حلمت أنى مع الفنانة يسرا فى وضع مخل فى بيت كبير. وأن واحدة من نساء هذا البيت شاهدتنا فتوارت خجلا.تصرفها لاقى ارتياح لدى. واصلت العناق والقبلات.إلا أن طفلا كان يعاكسنا. بشقاوة. ذهب نادى على أحد الأقارب من الرجال.

عندما اجتزت السادسة الابتدائية. كانت علامات الرجولة أن أصلى الجمعة فى الجامع الإبراهيمى بدسوق.خطواتى من البيت إلى المسجد كانت مليئة بالزهو.وأنا أستمع إلى الخطبة كنت أشعر أنى يمكننى أن أقدم خطبة أفضل. يتخلل صفوف المصلين رجل ذو طلعة وشموخ قيل إنه من كبار الموظفين ولكنه. يوم الجمعة أثناء سماع الخطبة يحمل قربة ماء على ظهره وفى يده أكواب نحاسية لامعة كالذهب الأصفر ويوزع ماء يسقى به المصلين. ماء معطر برائحة الورد.كنت أشعر أن المكان الفخم

المفروش بالسجاد والأعمدة الرخامية ملكى.بعد الصلاة أدخل إلى الضريح وتنتابنى القشعريرة. وأتشبس بالمقصورة النحاسية الضخمة.وأدعو الله. فى تبتل وخشوع.

وفجأة وجدت نفسى فى قاعة فوق السوق الجديد أستمع لمحاضرة لمدير مدرسة جمال عبد الناصر الثانوية وكان الرجل قد حصل على الدكتوراه فى التاريخ الحديث لتوه ودعى وجهاء المدينة ليعرض عليهم موضوع رسالته ويؤكد أنه مدير المدرسة وليس ناظر. وكل ما أذكره من هذه المحاضرة انه كان يدخن البايب بشراهة حتى إن سحابات الدخان كانت حوله مثل الكوشة التى تحيط بالعروس ليلة زفافها.

كان الشيخ المعمم الجليل الذى يأتى من بلد بعيد لكى يصلى كل جمعة فى المسجد الإبراهيمى بدسوق قد ربت على كتفى وسألنى عن أبى وقال ماشاء الله.الله يفتح عليك يابنى. وفاحت منه رائحة المسك. وفجأة لم أجده بجوارى وهمت فى شوارع المدينة أتأمل جمال الخط العربى فى لافتات المحلات التى كان يكتبها فنان خطاط موهوب اسمه سرحان. لكنى لم يخطر ببالى أن أكون فى حالة ذوبان عشقى وعناق مع يسرا.

١٦١

كهنة المعابد يردون بصفة يومية وعلى مدار الساعة على الكفار. أصحو من نومى على زعيقهم أو نهيقهم أو نباحهم. الصداع أصابنى. أغلقت جهازى ولعنت الفيس بوك. كما هى العادة. نلعن التدخين ثم نتناول سيجارة. فتحت الفيس بوك تابعت بعض الكهنة. قرأت ردود الكفار. بوستات المرضى كتبت لها ألف سلامة. بوستات الموتى كتبت

البقاء لله. تابعت تأوهات البوستات النسائية لم أعلق. مررت بسرعة على بوستات صباح الخير وجمعة مباركة ودعوت لمن يطلب الدعاء. وجدت نفسى متورط فى قراءة بوست حسبته سطورا قليلة، ولكن أدركت بعد فوات الأوان أنه طويل جدا يحكى فيه السارد تفصيلات يومه الممل مع زوجته وأطفاله ومطبخه وحمامه وشرفته المطلة على الشارع والعصافير. انتهيت.قلت وانا مالى. لماذا يقحمنى هذا الرجل فى خصوصياته؟ لماذا لايضع حدودا بين العام والخاص؟ فليستمتع بالمونولوج مع نفسه. أما الشبكة فهى مخصصة للديالوج. التواصل الاجتماعى. حوار الثقافات. تبادل المعلومات. الأخبار. الكهنة ارتفع صوتهم أكثر مما ينبغى، وكذلك الكفار. العنف اللفظى. صرخات الجهاد.إنها الحرب !

تمرين فى الكتابة.

١٦٢

أول خطوة هى التخلص من الكلمات. كلمة مثل الحرية يجب أن نشنقها فى ميدان عام. التخلص منها فورا. قتلت الكثير وسجنت الكثير وأهانت الكثير. أكبر الكلمات إجراما. وخداعا. وزفلطه. ومطاطية. عمر الناس ما كانوا أحرار. ولكن يقبلوا أن يقتلوا وتزهق أرواحهم تحت هذا العنوان المخادع. المجرم. الكاذب. المنحط. الحرية إذا كانت موجودة فليست لنا. خرافة كبرى سالت تحت أقدامها بحور الدماء. صاحبنا سخن. قرصت على الزهر. رميته بعصبية. أحدث صوتا تحذيريا على خشب الطاولة. شيش بيش. العب. دو. يك. انت لم تكن كذلك. طول عمرك عاقل. لاتتكلم فى السياسة ولاتطيق نشرة الأخبار.مرة واحدة تتكلم عن

الحرية بهذه الطريقة الغريبة. كنا مع بعض فى ميدان التحرير. عيش. حرية. عدالة اجتماعية. ارحل. ايرـ حال..ايرـ حال. تحول أمامى إلى وجه بلاعيون. وثقب فى منتصف الوجه تسيل منه الدموع. وفم وحشى ظل يكبر ويكبر حتى ابتلعنى.كان رحيما بى لم يمضغنى. ألسنا أصدقاء. لم يتقيانى. ألسنا أصدقاء. سرت فى بلعومه. دخلت معدته. شعرت بالبراح. أنهى عشرة الطاولة. وسار. وأنا فى كرشه.!

١٦٣

السحر تسلل إلى أذنه فى بواكير حياته. اشترى نايا من المولد. حاول أن يعزف. الضغط على الثقوب فى قطعة البوص التى هذبتها سكين حامية يصنع اللحن. أرخص آلة موسيقية. مادتها الأساسية البوص الذى ينبت عشوائيا على حافة الترع والمجارى المائية. يضم شفتيه وينفخ وتتبادل أصابعه الضغط على الثقوب. اللحن تمت ولادته عندما اقترب بشفتيه من شفتيها. أصابعه تتحرك على ظهرها. أسدل جفنية. تثبيت اللحظة. توثيق الحدث. التذوق على مهل. الارتشاف. الذوبان. التوحد. أنا أنت. يا أنا. الزهور تتفتح. الربيع. ثمرة المانجو. الأكل دون قواعد الاتكيت. قالت. أحبك. رد بسيل من القبل. أخذ يعزف لحنه. كونشرتو. صولو الناى. اللحن الهادر يزلزل العواطف التى استيقظت من سباتها العميق

١٦٤

لاتخرج كلماته عن فعلا قطعا حتما..وقع زلزال..هبت رياح.. استغنوا عن خدماته..جلس على كرسى فى مقهى أم كلثوم. أمامه كوب

ينسـون.. كلماته أصبحت يجوز عادى الله أعلم..قـال له صبى المقهى : نورت ياجنرال

١٦٥

ممكن حضرتك تاخد شاور يافندم.

كانت الخامسة صباحا.فتى أسمر صعيدى. لايتجاوز العشرين.

يتكلـم لهجـة أهله فـى الصعيد. يدور على أسّـرة العنايـة المركزة فى المستشـفى الكبير. مهمتـه أن يوقظ المرضى ويسـاعدهم على النظافة الشـخصية وتغيير القميص الأزرق. كان صباحا مفعما بالإشـراق. محمد وزميلاتـه فى مثل سـنه يتولون السـهر والعناية بأسـرة لايصدر عنها سـوى الآهات والأنين وصوت الوجع. عيـون تنظر إلى من يتحركون بين الأسّـرة. محمد يبتسـم دائما. يلبى الطلبات. فجأة انقلب إلى شـخصية جـادة جدا. يجـرى. يسـتحضر أدوات. ينقض على السـرير المجاور. صاحبـه غاب عن الوعى. محمد يقـود فريق الإنقاذ. العرق. الوقوف بين الحياة والموت. توقعت أن يكون الرجل قد فارق الدنيا. وسـوف يسدلون الغطاء على وجهه. ويسحبونه بسريره إلى ثلاجة الموتى. محمد يضحك. الرجـل آفاق. يتنـاول العصير. يتكلم. محمد يواصل عمله. يبتسـم. فى غابة موحشة وسط أشجار الموت. عناقيد الحياة. تشابكات المرض. الخيط الأبيض. الخيط الأسود. الفجر.

جلس إلى جوار السـرير يختلس النظـر إلى تليفونه المحمول. يغيبه بسرعة فى جيبه. كأنما يرفض أن يبعده شئ عما يحدث فى غرفة العناية المركزة.

١٦٦

قال المعلم : يعنى إيه التضخم وصل ٣٥٪؟

قال المثقف : نحن فى بلد تكره الدساتير وتؤله الحكام ونواب الشعب فيه يدافعون عن منصب الرئيس ويفرضون الضرائب الباهظة على المواطن الذى انتخبهم. فى بلد كهذا لا تسأل عن معنى التضخم.

قال الصبى : جبت من الآخر يا أستاذ. !

قلت: صدقت.

١٦٧

لا تجرد الآخر من كل الخيارات..حتى لا يكون خياره الوحيد قتلك. حاول أن يلتمس ممرا آمِننــا حتى يتفادى مقابلة محصل الكهرباء الذى يحمل فواتير باهظة. فتح الشــباك. دخل الهــواء والنور. قفز بنظرة إلى شــرفة مقابلــة. غيداء تطل على الحياة. أســاطير الطاقــة النووية. آخر موضــوع كان يطالعه. أنا مالى ما كنت فى حالى. كوريا الشــمالية. مفاعل ديمونة. الخــوض فى الخيار النووى مغامــرة اقتصادية غير مأمونة. أم كلثوم تغنى. انت عمرى.

١٦٨

صوب الســهم إلى رقبته. الجريح يواصل رغم الإصابة. صاحب الراية الحمراء يرميه بسهم مثنى وثلاث ورباع. الجسد المثخن بالجراح لايزال يقــف على أرجله. من الذى يجرؤ على النظر إلى عينيه. الجمهور يصفق

للرجل صاحب السهام صانع الجراح. تم سحب الثور بواسطة رجال أشداء خارج الحلبة. دخل ثور جديد. اشتغلت السهام. صفق الجمهور. كانت الفتاة تحاول اخفاء دموعها. مددت يدى لها بمنديل فلورا.

١٦٩

هنا قابلت نجيب محفوظ يحتسى قهوته السادة. ديليس مائة سنة من الحب. فى محطة الرمل. له وجه يطل على تمثال سعد زغلول ووجه يطل على شارع صفية زغلول. الكلمة بالفرنسية تعنى البهجة. ملك خواجا يونانى. المملوكية تقابل الحرية. على طاولتى بجوار النافذة التى تطل على البحر كان ابن خلدون يقول : العرب أمة وحشية تستلذ الخروج على ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه طبيعة منافية للعمران. قالت ذات الرداء الأصفر وهى ترفع قطعة صغيرة من التورتة إلى فمها : لاتصح سمات يدمغ بها شعب طول الوقت مع تغير الأجيال. قال الشاب المتحمس الذى يجلس معنا على نفس الطاولة : تفسير جيد لما يحدث فى سوريا والعراق واليمن وليبيا. قالت صاحبة الرداء الأصفر : انت يابن خلدون أصولك حضرمية وولدت فى تونس وعشت فى المغرب والأندلس ومصر. قلت : عربى قح.

صوت البحر الهادر. وقت الغروب. الشمس تعانى سكرات الرحيل. عروسة البحر تقفز فوق الطاولة. تغنى لسيد درويش. أنا هويت وانتهيت.

قال الشاب المتحمس :أحلى أكلة سمك تأكلها فى بحرى.

قالت صاحبة الرداء الأصفر :هذا المحل صنع تورتة زفاف الملك فاروق.

قــال ابــن خلدون : إن عمر هــذا الدكان أطول من عمــر بعض الدول العربية.

أنا أحب الإسكندرية.

١٧٠

الجو حار خانق.شعر بألم فى صدره.ذهب إلى العيادة الخارجية. بعد إجراء الكشــف. لم يمهلوه برهة. وجد نفسه فى حجرة الرعاية المركزة. التكييف فيها بارد جدا. أصحاب الرداء الأبيض وأصحاب الرداء الأزرق يلتفون حوله. يســتجوبونه. يوصلون الأسلاك بصدره. البرودة نالت من جســده. طلب بطانية. قال لكبيرهم إنه لم يفعل شــيئا فى الأيام السابقة على حضوره ســوى الذهاب إلى السينما وتناول الآيس كريم. كنت أحاول أن أعــزل الأمى فى ركن بعيد. هأانتــم فاجئتونى بالقبض على. تحولت إلى حالــة. قراءات على الشاشــات التى تحيط بالســرير.ملف ضخم فى الحسابات. فواتير

١٧١

أبو طور. لماذا اذكره الان. فورة الصودا كانت رائعة. ارتشف. ارتوى. انظر إلى الزجاجة ذات اللون البنى الداكن. من الذى صنع هذا المشــروب العبقرى. فــى تلك الفترة ظهر فى المدينة الصغــيرة التى تنام فى حضن النهــر نجوم فــى الأدب والفن والعلــم. لازلــت أدرس العلاقة بين هذا المشــروب الغازى الــذى كان ينتجه مصنع أبو طور فى دســوق. لينافس بيبســى العالمية وكوكاكولا. ونبوغ شــباب المدينة. قابلــت الخواجا أبو

طور.ياحبيبى مفيش حاجة اسمها حظ. لكن التنافسية. أمريكا لم تتقدم لأن لديها أسلحة ولكن لأن هناك أناس يتنافسون ودستور يحترموه. الخواجا بمصنعه الصغير كان يريد أن يحل محل شركة كوكاكولا فى مصر. المشروب العبقرى. يلف أرجاء المدينة النائمة فى حضن النهر. الأبطال يصعدون إلى المسرح. كنت صغيرا. لم أشترى بمصروفى حلوى اشتريت كتابا من بائع الكتب القديمة. حين عدت إلى المدينة التى تنام فى حضن النهر بعد رحلة الدراسة الجامعية. لم أجد مصنع أبو طور. وجدت كنتاكى. انضبع مجتمع مدينتنا التى تنام فى حضن النهر. الكل يحتفل بمولد الدسوقى. المراجيح. حمص. حمص. حمص. مدد على طول المدد..!

١٧٢

فى رحلته إلى الغابة.كمن خلف الشجرة العتيقة. يراقب ضبعا يراود فريستة. نظر بعمق فى عينيها. سكنت فى مكانها. تصدع لأوامره. قفز فوقها.بال على رأسها. أصابها بعض السكر أو الانسطال. سار خطوات واثقة إلى عرينه. تبعته. قلت لصديقى لماذا لم يفترسها فى مكانها وأصرَّ أن يستدرجها إلى عرينه. قال. طبع الضباع !

١٧٣

قال المثقف : إن الله سيحاسب المسلمين على تخلفهم العلمى وأنهم يعتمدون على أبناء الأديان الأخرى فيما أنتجوه من موبايلات وأسلحة وأجهزة قسطرة القلب !

قال المعلم : دعهم يفتحون أكشاكا للفتوى بمحطات المترو !
قال الصبى : درويش !

١٧٤

إعادة اكتشاف الخبز. صغيرا كان يتوجه إلى كتاب الشيخ مسعود.فى يده اللوح وفى سيالة جلبابه خبز ناشف قام بتكسيره إلى كسرات صغيرة جدا.كلما شعر بالجوع يغرف بكفه الصغير مسحوق الخبز ويتجه به إلى فمه. جلس معى على شاطئ النيل احتفالا بابنه الذى تخرج من الجامعة. قال إنه زهق من التورت والمحاشى والكيك.أطيب الطعام عنده الآن الخبز. أطيب الشراب لديه الماء. قلت إننا نعيد التعرف على أنفسنا حينما نتقدم فى العمر، وعندما خيم الظلام.كانت صفحة النهر هادئة. تعكس وجه القمر. تتهادى فوقه سمكة كبيرة رائعة. قال إنها النداهة. إنها تناديني. ألا تسمع. تقول سامح. سامح.

١٧٥

إذا كنت تريد أن تعيش ملكا فاعمل كعبد. أمنيته الوحيدة الان أن يشترى حذاءً خفيفا من القماش شاهده فى أحد محلات وسط البلد. الرقم مبالغ فيه. هل يدخر من راتبه الصغير. هل يقترض؟ الحذاء يطارده فى أحلامه. كما فى يقظته. التقط له صورة. وضعها تتصدر صفحته الشخصية على الفيسبوك. تسأل الأصدقاء. وقع فى غرام جزمة. علق صديق آخر مقرب قائلا إن صاحب الصورة وقع فى الماضى فى حب شجرة.

كان يزورها ويلمسها بيده ويتكلم معها. يحكى لها همومه. قال آخر شاهدته يتجول فى الشوارع بحثا عن أبواب البيوت القديمة المصنوعة من الخشب المصقول وتحمل نقوشا شعبية. يصورها. قال آخر شاهدته فى سوق الجمعة يبحث عن أشياء يقول عنها إننا لن نراها مرة أخرى. التحق بعمل بعد الظهر فى مقهى. اشترى الحذاء الخفيف المصنوع من القماش. واثق الخطوة يمشى ملكا.

١٧٦

الحب الثورة. الطب القانون. إذا كان الطب يعالج أمراض الجسد فالقانون يعالج أمراض المجتمع. ملحمة الطب والقانون على كورنيش النيل. المحكمة الدستورية بجوار مستشفى المعادى العسكرى. من الحجرة ٣٣٠وشرفتها أطل على أحداث. حصار المحكمة الدستورية. محاولات هدم الدولة. المجمع العلمى. سرقة المتحف. رد قلبى. انجى. ابن الجنايني. مريم ابنة البواب. فضحها تفوقها. ماذا لو كانت حصلت على مجموع أقل. ليتها حصلت على ٨٠٪فقط لتمشى بجوار الحائط. وقفت فى المحكمة أمام عدلى منصور. رائع مهذب. الآن قلبى العليل يتلقى العلاج. تحيا الثورة.مصر.الحب.

١٧٧

عندما اشتد العراك بين التاكسجى والزبون حول الأجرة المبالغ فيها بعد زيادة أسعار البنزين. قال التاكسجى بصوت جهورى :

اسمع يا أخ. ركوبتين ممكن تركبهم ببلاش مراتك وعربيتك. حطها حلقة فى ودنك أنا تاكسجى.!
ضجت مقهى أم كلثوم بالضحك.

١٧٨

اقتادته سلاحف النينجا فجرا إلى ظلام ورطوبة أربعة من الجدران الغليظة المتوحشة. قائمة الاتهام انت تعرض استقرار البلاد للخطر. الادلة صفحتك الشخصية على الفيس بوك وكاميرا ضبطت بمنزلك أثناء تفتيشه. الحبس. التجديد. الجدع بقى رد سجون. رقصت الغولة رقصتها الفوضوية. غنت أم قويق. الثابت المتحول. الخليفة استعمل القاضى. الجلسة كانت فى القلعة. واكلها والعة.. وفى عز الحر والولعة حبسوه.ياسو. ياسو. حبيبى حبسوهً!

١٧٩

الرجل من عصر الاستبداد المقدونى.مصمم على استخدام لغته ومصطلحاتة القديمة فى عصر ثورة الاتصالات والسموات المفتوحة وتدفق المعلومات. جلس على مقهى أم كلثوم يلمح ولايصرح.يهمز ويلمز دون أن يدخل فى الموضوع. يستخدم الاسقاطات.يخشى العسس.جند الخليفة. جدران السجون المظلمة. القيود الحديدية. وقع أقدام الجلاد. شوربة الطماطم بالكريمة كانت ساخنة. النفخ فى الزبادى. قال: هناك نية لفرض ضريبة على الحب. قد تكون من الآيس كريم أو اللبن المسكوب. أو من حليب القبلة الأولى. المشروع فى المجلس. وسيعرض فى الجلسة

العامــة غدا. مصادرى ســرية موثــوق بها. غير مســموح لى أن افصح عن المصــدر. فيل ضخم يمر أمام المقهى. حصان. كان الســؤال الذى يلح على. أأمتطى ظهر الفيل أم ظهر الحصان.

١٨٠

-جارى مطاردة العصابة فى وسط البلد يافندم.

الحرارة الشــديدة. ظن أن خط الاســتواء انتقل من مكانه ليستقر فى قلب معشــوقته القاهرة. الثانية ظهرا الشــمس تتعامد على معبد رأسه. رأى كائن مؤخرته حمراء يأكل الموز. نعامة شاردة. غزال يقف على باب ســينما مترو. قال وجدتها. أفضل وســيلة للهروب من هذا الحر اللعين أن يكــون الغداء آيــس كريم من قويدر. ثم النزوح إلى دار الســينما التى أمامه للاســتمتاع بالتكييــف الجامد فى قاعة العرض.. ومشــاهدة فيلم هروب اضطرارى. كان الهروب. وكانت المطاردات الســاخنة. فى وســط البلد يافندم.

١٨١

البير فهمى.قديــس بلاضجة. عطاء بلا حدود. فــى صباى.صومعته لفتت نظرى. أخذت انقب اســأل ابحث. لماذا هو مختلف؟ كانت عيادته فى شارع المركز بدســوق. قبلة لفلاحى القرى المجاورة للمدينة. المرضى المعدمين. يفترشــون الرصيف ويملأون صالة الاستقبال وحجرات العيادة الأربعــة. ينتظرون المثول بــين يديه. الطبيب العجــوز لايكل ولايمل. لايغضــب ولايقرف. يعرف طريقه فى صمــت إلى الأوجاع لكى يداويها.

أيــا كان مكانها فى الصدر أو فى البطــن أو فى الحوض. لايطلب من أحد أشــعة أو تحليل. عمل معمل تحاليل مصغر بجوار حجرة الكشف. قيمة الكشــف الرمزى والتى كانت قروش زهيدة تشــمل تحليل بول وتحليل براز وأشعة نظرية سريعة دون فيلم. لايتكلم فى الدين ولا فى السياسة.. مرضاه كلهم من الفقراء. يأتون على الركوبة غالبا ما تكون حمار يربطونه أمــام رصيف العيادة منذ الصباح الباكر. ويشــترون العيش والطعمية من مطعم كشــك بجوار لوكاندة صومع. يأكلون بتلذذ. يشــربون الماء والشاى ويحمــدون الله على نعمة الطعام ونعمة العــلاج الرخيص. ونعمة اسمها الدكتور البير فهمى. ثم يختتمون رحلتهم العلاجية بزيارة المقام. حول ضريح ســيدى إبراهيم الدســوقى كانت تصعد الدعوات للمريض بالشفاء وللطبيب البير بالتوفيق.

١٨٢

النص يقهرنى. يجبرنى أن اكتبه. ســطرا ســطرا.كلمة كلمة. حرفا حرفــا. علا. أيــن أنت الآن ياعلا ؟ راودتينى علــى الخيانة. خرج رجل المخابرات الكبير على المعاش فى عهد الســادات. فاقتطعه ضيعة. شركة ســياحة وشركة طيران. ورأيتى فى ابنه الســكير بغيتك. فحصلتى على الطــلاق من زوجك وتزوجتيــه. وعندما مات الكبير. ودب الشــقاق بين الورثــة. كان الصراع على الكعكــة. اجتمعنا كثيرا فــى الفندق الكبير. حفلات عشــاء صاخبة. يتخللها دقائق نتكلــم فيها عن ملف القضية فى حضور زوجك الســكير. الــذى كان يعتمد عليكى فــى مقابلة المحامين وادارة الصراع. الطاولــة الأخرى كان عليها عمرو بك الذى يعمل قاضيا.

صديق الجميع فى قاعة العشـاء وفى البـار. كان يمنحك اهتماما خاصا. كنت فلاحا اندس فى المجتمعات الراقية. كانت فى رقبتى قلادة مكتوب عليها الشهامة. وساعة جوفيال فى معصمى تدق موعد العودة إلى المنزل. موعد الذهـاب إلى المحكمة. موعد الغداء مع أسـرتى. موعد المكتب فى المسـاء. كنت مشـغولا بأشـياء صغيرة. منعتنى.كانت الملاك الحارس. القرين الطيب. الآن تذكرت جمال عيونك الواسعة.

١٨٣

وكلمـا هممـت بحبه هـم لقتلى. الحـب والقتل. صراع فـى الوادى المحترق.آويـت إلى شـجرة تعصمنى. أين هى الشـجرة ؟ لمـاذا قطعها هولاكو؟ زرعوا مكانهـا بندقية. الحب. الرصاص. الخوف. رسمت قلبا وبجواره سكين.

١٨٤

قالت شهر زاد للملك شهريار :

لمـا عرف أبو بلوفر المكافأة المرصودة للقبض عليه. هام على وجهه فى شـوارع بغداد. فدخل دكان حلاق. وأخذ ينظر هنا وهناك. واسـتقر على الكرسـى. واستعاذ من شر كيد إخوان مرسى. وطقطق الحلاق بالمقص عدة مرات. وطلب منه أن يمكنه من قفاه. لإصلاح شعره وعمل التدريجة. قال الحلاق: طول النهار وشـى فى قفا الزبـون. حتى إنى أتقنت قراءة القفا كما تتقن العرافة قراءة الفنجان. فارتعد أبو بلوفر. وخشـى أن يكشـف الحلاق أمره ليفوز بالمائة ألف دولار وفنطاس البنزين والسـولار، ولكنه

تمالــك أعصابه. وهرش فى شــرابه. وأخرج قطعة مــن النقود. وأعطاها لصبــى الحلاق الواقف إلى جواره بالمنشــة ليطرد الذباب ويهشــه. وقال للحلاق إنه لا يريد تســوية قفاه بل يريد عمل شــنبه دوجلاس خفيف. فصدع الحلاق للأمر.

وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

١٨٥

قالت شهر زاد للملك شهريار :

مــن لطيف الحكايات. أنه لما آل أمر الحكــم إلى المأمون لم يبايعه أبو بلوفر. وأقام فى دولة الإمارات. وظل هناك لسنوات. فلما يأس المأمون من عودته إلى الطاعــة. والانتظام فى صفوف الجماعة. توجه بخيله وركبه. وضباطه وجنــده. للقبض عليه. إلا إنه هرب إلى بغــداد. واختفى فيها. فجعل المأمون لمن يدل عليه مائة ألف دولار. وفنطاس ســولار. ومثله من بنزين٨٠.

وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

١٨٦

القرار إغلاق مدينة. كتب الشــاعر قصيــدة عنوانها ملك الصراصير. كتــب القاص حدوتة يــوم الزينة. رسمت طفلتى صورة للشــيطان يعبث بملامح وجه طفل. أصدر الحزب بيان شــجب. اشتعلت الميديا هاش تاج عليك اللعنة. فرقة حسب الله فى مدخل القلعة تغنى افندينا دخل الديوان والعســكر ضربوا له ســلام. اجتمعت نقابة المحامين لبحث رفع دعوى

طعن علـى القرار أمام مجلـس الدولة. أطلق صبى القهـوة نكتة لاذعة. المسـتريح يؤيد القرار. نقابة مقاولى الهدم أشـادت بالقرار. كتب بيسـو على ظهر التكتوك عبارة قادر وفاجر. الشرطة قبضت على بعض الشباب بتهمـة نية التظاهر.مراسـلكم من مدينة الطين سـوف يطلـق بيان هام وعاجل. تابعونا. اوعوا تروحوا فى أى حته !.

١٨٧

الكبيرة بيضا ومبقلظة. الوسطانية رفيعة وسفروتة. الولد جمال طلع شـاطر مثل البنتين هبة وسـعاد. الثلاثة حصلوا على أعلى الدرجات فى الثانوية العامة.. الكبيرة دخلت طب الوسـطانية هندسـة الولد صيدلة. ليه ياعم عادل عملت فى نفسـك كده.. موظف على قد حالك فى السـكة الحديد. لوزة شـاطرة فى تربية العيال. اسمها الحقيقى لويزا. تزوجها عادل من شـبرا. واسـتقر بها فى العباسـية. البنت الوسـطانية تشعر بالاضطهـاد. اهتمام الأب والأم منصب على الكبـيرة المبقلظة الدكتورة. بعد المعاش أرى عم عادل دايما فى البلكونة. يسلم معاشه للست لوزا بعد أن يحجز مصروفه الشـهرى الضئيل. من مصروفه يدخر ليشـترى لفافة من القهوجى. يحشو السيجارة. ماان تذهب الرائحة المميزة للسيجارة إلى أنف لوزا حتى تجرى وراءه بالشبشـب. فيجرى منها ويبكى كالأطفال. شرب سيجارته. وامتلأت البلكونة بالغيد الحسان. وجاء الطعام والشراب فى صحائف من الذهـب والفضة من كل مكان. وضربت الأوتار. وسمعت الألحان. اكتمل المجلس فى أبهى صورة. وخرجت الراقصة من المقصورة. وقع الشبشب فوق رأس عادل فأفاق. ودب الشقاق والخناق.

وبعد أن دخل مسرور السياف.
قالت شهزاد للملك شهريار سأكمل غدا يامولاى
فأشار إلى مسرور بالانصراف
لاح الصباح فسكتت شهر زاد عن الكلام المباح.

١٨٨

الرجل والسمكة. بائع فول فى الشوارع الخلفية فى وسط البلد. يبدأ عمله السادسة صباحا وينتهى فى التاسعة صباحا أيضا.يشمر ذراعة المرسوم عليه سمكة ذيلها مشقوق وفمها مفتوح وعينها عبارة عن نقطة سوداء وسط دائرة. ويحمل قدرة الفول ليستقر خلف مبنى جريدة الجمهورية القديم. يعرف زبائنه من صغار الموظفين وعمال اليومية. ويعرف طلباتهم. تئن قدرة الفول تحت يده التى لاتهدأ وذراعه الموشوم بالسمكة. ويكون سعيدا عندما يحضر له زبون فى الساعة التاسعة ويرد عليه شطبنا ياأستاذ. يلم عدته ويعد فلوسه ويرجع إلى حارة الحنفية بالسيدة زينب. يستريح قليلا ثم يستعد لرحلة الصيد. يأخذ الصنارة والطعم ويستقر على شاطئ النيل فى منطقة منيل الروضة. تعود صىلاح على هذه الرحلة اليومية التى تنتهى بعشوة سمك مع زوجته أم إسلام وأطفاله. وتبدأ بقدرة الفول. سمكة اليوم كانت كبيرة ومبطرخة. البطن كانت من نصيب الولد إسلام.وجد شئ غريب فى منابه من السمكة. حبة بيضاء كبيرة الحجم. بعد انتهاء الطعام صاح الأب لؤلؤة. إنها لؤلؤة. يامنتا كريم يارب.

وهنا أدركت شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.
مولاي!

١٨٩

-هل تسمحين بقبلة لا أظمأ بعدها أبدا.
أنــا أفهم العالم من خلالك. أســتطيع ان أغيره مــن موقعى الصغير. امتص رحيقه.آخر رشــفة من نخاعه.أخذ كل حقوقى قبل أن اغادره. فى صباح مفعم بالاشــراقات.أتطهر من خطيئة الانطواء.أقول كلمتى ورزقى على الله. من أحوال الوجد.

١٩٠

كمحكوم عليه بالأرق الأبدى. حايلت النوم. اســتدعيته. اشــتركت فــى مطــاردة مثيرة لكل الأفكار التى تحل على ضيفــا ثقيلا فى مثل هذا الوقت كل مساء. أشباح مخيفة. الخوف. المرض. النهايات المؤلمة. فشلت محولات التعامل مع الحالة ســلوكيا. لابد من اللجوء إلى الدواء. البعض يفضل المعالجة بالأســلوبين فى وقت واحد. ابتلعت القرص. تمتمت بآية الكرسى.المعوذتين. نمت. من أضيق الأبواب دلفت إلى عالم الأحلام. اذابى فى قاعة مكتظة. قاعة مدرج كلية الحقوق.لا أدرى.قاعة مجلس النواب. قد يكون. ولكن ماأنا متأكد منه أنى كنت على المنصة. والحضور لايطيقون كلامــى. حاولت أن أختــم حديثى بعبارة مركزة. قلــت ابحثوا. اقرأوا. التشريع صناعة ثقيلة. جاء وقت الانصراف فانتصبوا وقوفا قبل أن أختم خطبتى المملة بالنســبة لهم. أنهيتها بالتشــريع مهمة ثقيلة والســلام

عليكم ورحمة الله. هاجمتنى الأم امتلاء المثانة. غادرت سريرى.تلمست طريقى إلى الحمام. تبولت بارتياح! !لاحظت رؤوسا بشرية كثيرة فى قاعدة المرحاض. !

١٩١

الحياة حكاية يحكيها معتوه ولاتعنى أى شئ. ابن عشر سنوات. عندما كنت أقف فى البلكونة وأستمع للخطيب المفوه ابن الجيران. على. يقف على مايشبه حجر أو مصطبة بجوار باب منزله. يعيش فيه هو ووالده فقط الذى كان عسكرى فى مركز شرطة دسوق وأحيل إلى المعاش. ساعة العصارى. أرى على وقد امتطى المصطبة. خطبة مطولة. يقول كل شئ. كلام معقول. موزون. مقبول. وتساءلت لماذا هو مجنون؟ كل الناس فى الشارع يقولون إنه مجنون. لايحاسبونه على قول. لايلقون لكلامه بالا مهما كان جيدا. كنت أنزل أحيانا لأعطيه سندوتشاح لأنه يتكلم بالساعات وينسى أن يأكل أو يشرب.حتى أصبح خفيفا كالريشة. وشفافا كالماء النقى فى كأس بللور بلجيكى. سمعته يقول العصافير وينظر إلى السماء. وبعد ذلك عرفت أنها تعنى لديه الطائرات. لقد رجع من هزيمة ٦٧ فاقدا عقله. بعد أن تم تجنيده قبل الحرب مباشرة.

١٩٢

فى مدخل العمارة الرطب. ساعة الظهيرة.تداعب انفى رائحة طشة الملوخية من الشقة التى على يمينى. ورائحة الفتة واللحم الضانى من

شـقة اخرى. اما شقة تاجر السيارات فكانت تتطوع بمد الجميع برائحة الشـواء. فى عمارتنا نسـاء يصنعن أطباقا شهية. قابلنى جارى المهندس هانـى فـى الطابق الثانى. قـال لى إنه خرج من المشـكلة باعطاء زوجته كل معاشـه لتتصرف واكتفى بحجز مصروف يومى لنفسة قيمته خمسة جنيهـات. قلـت انا التحقت بحراسـة المقابر. فى مكتبتـى أعيش بين أسـلافنا الكتاب الذين ماتوا. مكتبتى حديقة الأموات. يحدثنى روسـو عن العقد الاجتماعى ومنتسكيو عن روح القوانين. قال بسخرية متجاهلا كلامى :صاحب العمارة مستبد والبواب قواد والسكان بهايم والأسانسير عطلان. سلم لى على أمواتك. ياحارس المقابر !!

١٩٣

ليل بلا سواد. شعر ذهبت صبغته. شئ بائس. فاقد المعنى. أنا لا أريد أن أكتب شـعرا. أريد أن أكتب قصة. الشـعر لغة الأحلام. فى ليلة العيد تجرعت حزنا. تم التوقيع. كنت أحلم بليلة رائعة. فينسيا مدينة الزهور والنسـاء. العطور الباريسية. الورد والندى. قرأت الجزء الثلاثون. دعاء الخاتمة. اسـتحمام فجرا. صلاة فى الخلاء. لفحة برد. أصابتنى. ذهبت أجازة العيد إلى الجحيم. الموقف يزيد اشـتعالا. كالأولياء يسـتخدم لغة الإشارات.يلمح ولا يصرح. لاتعيشوا ليل بلا سواد..!!

١٩٤

كنت أشـم رائحة قريتى فى المسـاء وأسمع رنين الملاعق فى الصحون وصياح الأطفال أمام دكاكين السويقة يشترون الكرملة. وإذا بفرقة حسب

الله تجوب الحارات والأزقة بألاتها النحاسية وطبولها وتغنى: أفندينا دخل الديوان والعسكر ضربوا له سلام.

والولد شلبى العايق بعد أن عوج الطاقية أخذ يرقص باقتدار وحرفية. والبنت زنوبة فى الشباك الموارب. يابنت بصى عمر الفرجة ما كانت عيب. لكن البنت مستحية. الرجل العجوز الذى يمسك بالطبلة والذى وصل منذ قليل من شارع محمد على يكاد ينفجر من الغيظ من ناس تكبت مشاعرها باتقان تاريخى موروث ابا عن جد. كان يوم طهور سالم ابن شيخ الخفر.

دارت هذه الصور فى ذهنى وأنا فى مهرجان القلعة الدولى للطبول ووصل موكب وزير الثقافة وسارعت فرقة حسب الله إلى تحيته. أفندينا دخل الديوان والعسكر ضربوا له سلام.التقطت صورة سيلفى مع الفرقة. وأخرى مع الرجل الطاعن فى السن الذى يعزف على الطبلة ببدلته المميزة ذات الأزرار النحاسية اللامعة.

١٩٥

وقف أمام القبر يبتسم. العلاقة بين زيارة القبور والعيد فى حاجة إلى تنقيب. كان قبل أن يصل إلى سن المعاش قرر أن يتزوجها. مطلقة فى الثلاثين.كثيرة الفتنة. طاغية الجمال. قالت عنه بعد الدخلة أنه أكثر من رجل. قالت عزيزة أخته سوف تخلف منها طفل سيتيتم بعد بضع سنين. وتتلطم الولية فى تربيته. ماتت المرأة الجميلة وتركت ولدها للرجل العجوز. وها قد تخرج كريم من الجامعة. وتجاوز الأب الثمانين. وقف أمام القبر يبتسم.! وينظر نحوى.

١٩٦

قدم لى كعكته الملوثة. اكلتها باشتهاء الجائع منذ شهر. أصابتنى الأم الأمعاء. برودة الأطراف. ميل إلى القئ. بعد ساعات من الرعب والصدمة والألم تذكرت درج الأدوية المتبقية من جولات سابقة مع خسة المرض ونذالته.عثرت على فيلاجيل ومضاد حيوى. التهمت الأقراص. ولتر ماء نقى. آويت إلى سرير يعصمنى. كان العيد قد مر.

١٩٧

جبنة نستو ضانى

لا أعرف إذا كان هناك شئ بهذا الاسم أم لا. كانت كل معرفتى تتلخص فى اللبن الرايب والجبن القريش وزلعة المش. وعندما انتقلت للمدينة عرفت الزبادى. على سطح بناية شاهقة ومعى زميلى عمرو. كان يصيح:

-أنا عايز أكلة لايشترك فى عملها واحدة ست.

وجاء الصوت من أسفل :

-جبنة نستو ضانى.

كان الرغيف فى يدى دافئا مستديرا محمرا جيد التسوية.أشرت إليه ان يأخذه. أمسك بطرف رغيف الخبز الدافئ. كبر حجمه إلى أن اصبح مثل سجادة إيرانى فخمة. فأخذه إلى السور. ليتدلى جزء من الرغيف نحو الشارع. وباقيه مفرود على سطح العمارة. يدعونا لتناوله. جبنة

نستو ضانى. وجبة لاتشترك النســاء فى صنعها. الهواء الرطب.نسمات الفجر الباردة أجبرتنى على الاستيقاظ فى غير موعدى.

١٩٨

قال المعلم : عيد..باى حال عدت ياعيد.

قــال المثقف :العيد فــرح عمومى. كل الناس تفرح فــى وقت واحد. ياخدوا أجازة من كل حاجة إلا الفرحة والبهجة. اختراع عبقرى مصرى من قديم الأزل حتى من قبل نزول الأديان السماوية. يوم الزينة.

قال الصبى : العيدية ياباشا.!

١٩٩

كنت معزوم على الأفطار امس فى نادى الشــرطة الفخم جدا المتواجد بجــوار برج الجزيرة.فخامة لم أجدها فــى أى مكان.قيل إن العادلى كان يقضــى به معظم وقته. بعد الإفطار ذهبت إلى مســجد النادى لأداء صلاة المغرب. المسجد تحفة معمارية مصروف عليه ببذخ المماليك. جاء شخص ليصلى ورائى. ثم تلاه أشخاص كثيرون. جعلونى إماما. رفعت صوتى فى التــلاوة. اهتممت بمخارج الحروف. عندما انتهيــت من قراءة الفاتحة سمعت كلمــة أمين يتــم ترديدها كالرعــد وبنغمة خاصة. استشــعرت الرهبة والاهمية. وانشــغلت افتش فى ذاكرتى عن افضل مااجيد تلاوته مــن محفوظاتى القرآنية وأطولها لأثبت إنــى إمام جيد. وبعد أن أنهيت الصلاة بالتســليم وجدت من جاء يســلم على ويقول تقبل الله ومن يحاول تقبيل يدى وهو يقول: حرما يا مولانا.

أنا بقيت مولانا. !

٢٠٠

الدار القديمة. وتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا. قبيل ثورة سعد زغلول بعام كان الرجل يأخذ عروسه فى بيت كبير هو الوحيد فى القرية المبنى على طراز حديث آنذاك. وخلال عدة سنوات أنجب عددا من الأبناء. قام بتعليمهم فى الجامعات. وبتوظيفهم فى القاهرة والإسكندرية وطنطا. وكلما أحيل أحدهم إلى المعاش يرجع للإقامة فى الدار القديمة التى خلت من الأب والأم ثم يموت فيها. مائة عام الدار صامدة. قامت بتخريج ثلاثة أجيال إلى المقابر. مرت بلحظات قوة وعانت من لحظات ضعف. شاهدت سعادة وشقاء. أفراح وأحزان.

وقفت فى وسط الدار أناجى جدى الأعظم. لماذا يارجل بنيت هذا الصرح؟ هل كنت تعرف أنه سيخدم أجيال عدة من ذريك. هل كنت لاتعمل من أجل نفسك فقط بل لأبناءك وأحفادك. لو أنت أتيت اليوم ستحكى لك الدار قصة ذريتك. ماذا فعلوا من بعدك. لا أحدا يفكر الآن إلا فى نفسه. الدار خاوية. ولكنها لم تفقد قدرتها على الحكى. لاتزال قادرة على السرد. وصناعة نصوص رائعة. وان تمدنى فى الصيف الحار بنسمات رطبة. تكييف طبيعى بلا كهرباء أو ضوضاء. أحن إلى بيت أبى وجدى

٢٠١

الأحلام الفاتنة تراودنى. هلع يسود المدينة. قالت: لاتقلق ياحبيبى. قلت إنى صائم. قالت وهل كلمة ياحبيبى تفسد الصوم. قلت لا ولكنى

أخاف مقدمات الغزل. الشبح يقبض على. يمنعنى من الحركة. أحاول أن أصرخ. صوتى لايخرج. أعضائى تستعيد قدرتها على الحركة وتنتفض.. الأخبار خانقة. الجو حار. أتنفس بصعوبة. عندما أقتربت وردتها من أنفى. قلت. قربك حياة. بدأت أتحرر من الخوف. رائحة العشق تسكرنى. الخيط الأبيض. الخيط الأسود. الفجر.

٢٠٢

الرجل والحصان. أنا إن قدر الإله مماتى لن ترى الشرق يرفع الرأس بعدى. عجوز يرجع آخر الليل إلى بيته. وقف وحصانه المعلق فى الحنطور. بعد طول انتظار لزبون يريد أن يتنزه على كورنيش النيل. لايأتى. أخيرا صوت أم كلثوم وأنا أن قدر الإله مماتى. قام برفع صوت المذياع. طبطب على الحصان. اشترى فول وخبز لزوم سحوره. وعلف لصاحبه. وتهادى منكسرا فى حوارى بولاق ابو العلا. يافرج الله. كانت هذه هى العبارة المكتوبة على ظهر الحنطور. قام بالمسح عليها. أيقظ أهله. التفت العائلة حول طبق الفول. ينتظرون آذان الفجر.

٢٠٣

كانت الاشجار واقفة. الهواء البارد يداعب وجهينا. انطلقنا نحو القطار. نتدفأ بمشاعر وعواطف ليال خالية. جلسنا جنبا الى جنب. خلعت نعليها لترتاح من مضايقات حذائها الصغير ذو الكعب العالى. كانت تضحك. كلما نظرت فى وجهى التمعت عيناها. توافقنى. تصدقنى.

كل كلماتــى تصلها فتتحول الى حبــات لؤلؤ. تثقب الحبات. تلفها حول جيدها عقد ابيض. يتبدد برد ديســمبر. تســطع شمــوس واقمار. انهار خضراء وبحار زرقاء. الكلمات السحرية تسللت فأصابتنى بسكر او خدر او ارتفاع. فوق ســحب. فوق جبال. هضاب. ســهول. تحولت الى طائر. طائر يغرد. يرقــص. احلى الالحان. كلك حبيبى. كل ما فيك يا حبيبي حبيبى. كانت يدها فى يدى حين نزلنا من القطار الذى شق احشاء المدينة الكبيرة المتوحشة. فى خطى سريعة دلفنا الى الميدان الفسيح. قبضت على يدها بشــدة. فى هذه المدينــة المزدحمة تتوه الصغــيرات. يضيع الحب. استقبلنا التمثال الضخم الذى يتوســط الميدان بابتسامة ساخرة. وتواصل ضخ الماء فى النافورة.

٢٠٤

الشمس فى المســاء تتجول فى العالم السفلى لتطهره. لتضيئه. الموتى تحت التراب ينتظرون الشمس كل ليلة. الجو قارس البرودة. الدفء مع ظهور الشــمس. الضوء مع ظهور الشــمس. كان الخروج بالنهار يعادل بالنســبة للمتوفى الولادة من جديد بشكل يومى. الرجل السبعينى يظهر في شــارعنا مرة اخرى. يسير ببطء شديد بعد ان يستعيد الشارع هدوئه. يتأمل المباتى فى التوفيقية. لايرى احد فى الشارع سوى نفسه والبنايات القديمة. كنت فى شــقتى فى شــارع الخليفة المأمون بروكسي. هى عبارة عن عدد كبير من الحجرات المصفوفة. تفتح على طرفة طويلة فى نهايتها باب يؤدى الى الشــارع رغم انها فى الدور الخامس. كنت وحدى. دخلت

مجموعة تنازعنى ملكية الشـقة. مع ظهور الضوء. قرأت المعوذتين واية الكرسـي. شرعوا في طلاء الشقة كدليل على ملكيتهم لها. ثم قاموا بطلاء بدلتى وانا ارتديها. اخيرا طلبت منهم ازالة الطلاء من ملابسي في مقابل ان اغادر الشـقة. ومسـكت ورقة البردى. كانت الكتابة عصية. اصابعى متجمدة. كانت العمارة المجاورة يسكن فيها صفوت الشريف. وتزعجنا الحراسـة المرافقة له فى الصباح والمساء. لم اكن استطيع ان احلم او اكتب او اتنفس. كنت فقط اتألم. وهو الامر المسموح به فى مثل هذه الظروف. ماذا كنت افعل. منذ يومين فقط قابلت مكاوى سـعيد على باب الاتيلية. اليـوم قرأت خبر وفاتـه. ذهبت الى زهرة البسـتان حيث كان يفضل ان يجلس. وجدتهم يثرثون. يضحكون. يدخنون .

٢٠٥

الرجل..وقفت على قبرة..كان يملك بيتا كالقصر..ودوارا كالسراى.. وعـددا من الافدنة..ورثه الابنـاء الثلاثة ..وتنازعـوا ..فانطفأت انوار البيت..واغلـق الدوار..وبموت الثلاثة ..ظهر الورثة الخمسـة عشـر.. تفتتت الملكية..وبيعت الارض..والمنزل ..والدوار..!

٢٠٦

كالطير اغرد. دون ان انتظر تصفيقا. اغنى لنفسي. للاخرين. للحياة. بـلا امل. مااجمـل ان تغنى فقـط. تصنع الالحـان. حتى اخـر دقيقة. وتهديها للجميـع بلا تفرقة. بلاتمييز. اغلى ماامتلكـه هو الزمن المقرر

لى ان اعيشــة. فلمــاذا اضيعه بلا عطاء. بلا حب. دون ان اغرس شــجرة .دون ان اعيــش لحظة دافئة الى جوار قلبك الــذى يتدفق كالنهر. وقفنا امــام ماجيــك وتناولنا الايس كريــم بالفروت صــالات. ونظرنا الى قصر الاتحادية. روكسي شــهدت جولاتنا المبكرة. وجلساتنا فى الامفتريون. والوقوف بالســيارة امام ابوحيدر لتناول البليلة بالمكســرات. واحاديث مطولــة فى الحب والحياة والعمل والعلم والمســتقبل. حمنا كالفراشــات البديعة لانبغى من الحياة سوى وردة وزجاجة عطر ولحظة سكون اتأمل خلالها قلبك الذى لايكف عن الرقص .

٢٠٧

لاتزال تدور فى القرى اثناء جلســات الليل الشــتوية الطويلة حول اكواب الشاى الساخنة حوارات حامية الوطيس عن السيسي ومرسي. كل طرف متعصب لصاحبه. كان يدافع عن السيســى طبيب وشــيخ بلد وكان يدافع عن مرســي عاطل بارادته فى عز الشباب ينام النهار ويسهر طوال الليــل يحمل شــهادة جامعية يرحب دائما بقــرص ترامادول مجانى او تعميرة حشيش او ورقة بانجو. يدافع عن مرسي وصحبه ومرشده لدرجة البكاء. والتجريح فى اصدقائه واتهامهم بالجهل. حاولت كثيرا ان اوقف الحوار العبثى واقول لهم :

الموضوع مش مرسي والسيسي الموضوع مصر ياجماعة.

كان صوتى ضعيفا فى وسط الاصوات المتعصبة القوية المقاتلة فى معركة وهمية .!

٢٠٨

حتــى فى احضان الحبايب شــوك ياقلبى. القبلات الرومانســية. فى الشــارع حملقت فــى افيش الفيلــم. ادرت وجهى. خجلا. ابــن الثالثة عشــر يقرأ المنفلوطــى الذى يتكلم عن حب لاتلوثــه القبلات ولا تختلط به رغبة جســدية. سرت الى النهر فى المدينة الصغيرة. ادرت ظهرى الى دار ســينما مصر التى كانت تعرض فيلم ابى فوق الشــجرة. فى المدرسة سمعــت اصدقائى يعقدون العــزم على الذهاب الى الســينما لكى يحصوا عدد القبلات الرومانســية الدافئة التى حدثت فى الفيلم بين عبد الحليم ونادية لطفى. على ضفة النهر و فوق الكوبــرى العتيق الذى كنت اخلو بنفسي فوقه دار حوار داخلى بين صبى يريد ان يتفرج على الفيلم و آخر تمكنت منه كتابات المنفلوطى عن الحب العذرى والغزل العفيف. انتصر المنفلوطى وحرمنى من مشاهدة الفيلم لعشرات السنوات. القبلات منعت ظهور الفيلم في التليفزيون منذ انتاجه ســنة ١٩٦٩ والمنفلوطى منعنى من مشــاهدتة فى دار السينما. جانا الهوى. الهوى هوايا. احضان الحبايب. ياخلى القلب. مشــيت على الاشواك. رفعت دعوى ضد المنفلوطى. النائب العام عبدالمجيد محمــود الذى كتب قائمة الاتهــام وادلة الثبوت وقدم مبارك الى المحكمة انتهى من رسالته للدكتوراه وهو يقترب من السبعين وموضوعها الفســاد وطرق مكافحته. قلت له احكم بينى وبين المنفلوطى. ابو عمة مايلة. حرمنى من مشــاهدة خمســون قبلة رومانســية ساخنة. حبســنى فى قفص العفة والخجل لســنوات طويلــة حتى انتهت مرحلة

الشباب. لم اشاهد فيلما قال عنه النقاد انه واحد من احسن مائة فيلم فى السينما المصرية. منعنى ان اشترك مع زملاء المدرسة في شرب الحليب فى الوقت المناسب. حرمنى من نزق الصبا وحلم الطفولة. ميم. فتحت القاموس. الحرف الاول من اسمى. ميم. هو الحرف الرابع والعشرون من حروف الهجاء. لماذا هى حروف هجاء. مخرجه من بين الشفتين. تختص بنطق حرف الميم وصناعة القبلات الرومانسية الدافئة .

٢٠٩

عودة اخطر رجل في العالم. هل هو فؤاد المهندس ام ترامب. وماتلك بيمينك ياموسي. صباح ملئ بالتفاؤل. قال هى عصاى. فكرت ان اقتنى عصا من الابنوس. واروح واجئ بها كما كان يفعل مصطفى النحاس والملك فاروق. قال الرجل كفاك الله شرها. اتوكأ عليها. ربنا يمتعك بالصحة ولا تحتاج لها ابدا. واهش بها على غنمى. كانت سوداء جميلة بمقبض من الفضة والعاج. تحفة من اكسسورات الرجل الانيق فى النصف الاول من القرن الماضى. العصا والطربوش والمسبحة اليسر وعلبة السجائر من الفضة والخاتم الكبير بفص من الياقوت الاحمر. ولى فيها مآرب اخرى. اخطر رجل في العالم . اصابنا بالحزن والاحباط. كان خلف الميكروفون. قالها كلمة. فقط كلمة. السفارة تنتقل. جرح العروبة. كشف عورة الحكام. الملايين يحضرون الحبر الاسود ليكتبوا شعارهم المفضل منذ نهاية اربعينات القرن الماضى. تسقط اسرائيل. القدس عربية .

٢١٠

الباقة لم تعد باقة ورد. بل باقة نت. الزهرة الوحيدة فى الفازة ذات الرقبة الطويلة الرشيقة. تراودنى عن نفسي. قدت قميصى. انا لست يوسف يازهرتى المتيمة. انا من آحاد الناس. اسير فى الشوارع. اهيم على وجهى. اشرب قهوتى فى مقهى ام كلثوم. ويعجبنى بن عبد المعبود المحوج فى باب اللوق. واشترى الحلوى من العبد. من الاخر انا انسان عادى جدا جدا. يمكن ان يرتكب الذنوب. ابعدى عنى غوايتك النبيلة. سوف احكى لك قصة. او اقرأ قصيدة. او اعزف قطعة موسيقية على العود المصنوع من خشب الورد. ذو الاوتار المصنوعة فى المانيا. اين انت يازرياب. لم اتعود غيابك لفترات طويلة. الباقة لم تعد باقة ورد. بل باقة نت. تأخذك خيوط الشبكة. العنكبوتية. من اهلك. من حبيبتك. من بلدك. انا لا اعشق زهرة وحيدة فى مزهرية ذات رقبة طويلة رشيقة. لقد مرت تلك المرحلة من حياتى. اهيم بثلاث زهرات على الاقل. ورقم هاتفى به ثلاث ستات .!